نوبل للآداب 2010

@ketab_n
Follow Me
2.6.2014

ماريو بارغاس يوسا

من قتل بالومينو موليرو؟

رواية

ترجمة: صالح علماني

طوى
للنشر والإعلام

ماريو بارغاس يوسا

من قتل بالومينو موليرو ؟

ترجمة: صالح علماني

@ketab_n
Follow Me

Twitter: @ketab_n

من قتل بالومينو موليرو ؟

Twitter: @ketab_n

- ماريو بارغاس يوسا
- من قتل بالومينو موليرو ؟
- ترجمة : صالح علماني
- جميع الحقوق محفوظة للناشر©
- الطبعـة الأولى 2011
- الإخراج الضوئي: هـالا خليـل

All rigyts reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, inclouding photocopying, recording, or any information storage and retrieval system, without permission in writing form the publisher.

Twitter: @ketab_n

العنوان الأصلي لكتاب

Mario Vargas Llosa

Quién mató a Palomino Molero?

First Edition: 2011

الطبعة الأولى 2011

حقوق الطبع محفوظة ©

طوى للثقافة والنشر والإعلام . لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED
19 TANFIELD AVENUE,LONDON,NW2,UNITED KINGDOM
Email: tuwa@london.com
Tel : 009662108111 -00966505481425

Twitter: @ketab_n

إلى خوسيه ميغيل أوفيدو

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

- يا لأبناء أعظم العاهرات. - دمدم ليتوما بذلك شاعراً بأنه سيتقيأ، وأضاف: - بأي حال تركوك أيها النحيل.

كان الشاب مشنوقاً ومثبتاً على شجرة الخروب الهرمة، في وضع عبثي إلى حد بدا معه أشبه بفزاعة عصافير أو دمية كرنفال مفتوحة الساقين منه بجثة. تراهم مثلوا به بهذا الحقد غير المحدود قبل قتله أم بعده: كان أنفه وفمه مشقوقين، وعلى جسده خثارات دم جاف، وكدمات وشقوق، حروق سجائر. وكما لو أن كل ذلك لم يكن كافياً، رأى ليتوما أنهم حاولوا خصاءه أيضاً، لأن خصيتيه كانتا تتدليان إلى ما بين ساقيه. كان حافياً، وعارياً من خصره حتى قدميه، وليس عليه سوى قميص داخلي ممزق. إنه شاب نحيل، أسمر، وبارز العظام. وفي متاهة الذباب التي تحوم حول وجهه كان يلمع شعره الأسود المجعد. وكانت مَعِزُ الصبي تدور متثاقلة من حوله، كاشطة بأظلافها أحجار الخلاء بحثاً عن طعام، وخطر لليتوما بأنها قد تبدأ في أي لحظة بقضم أقدام الجثة.

دمدم وهو يكبح غثيانه:

Twitter: @ketab_n

- من فعل هذه اللعنة؟

فقال الصبي:

- وما أدراني. لماذا تلعنني أنا. ما هو ذنبي. عليك أن تشكرني لأني ذهبت لإخطارك.

ودمدم ليتوما:

- لست ألعنك أنت أيها الصبي. إنني ألعن لأني لا أصدق أن في الدنيا أناساً أشراراً هكذا.

لا بد أن الصبي قد شعر بأعظم هلع في حياته هذا الصباح، لدى مروره مع معازه من هذا الخلاء الصخري واصطدامه بمثل هذا المشهد. لقد تصرف الصبي كمواطن مثالي؛ فترك قطيعه يرعى الحجارة إلى جوار الجثة وهرع إلى تالارا ليخطر مركز الشرطة. إنه يستحق التقدير، لأن تالارا تقع على بعد ساعة من المسير على الأقل عن هذا المكان. وتذكر ليتوما وجهه المتعرق وصوته المتهدج حين ظهر عند باب الموقع:

- لقد قتلوا شخصاً، هناك، على طريق لوبيتوس. إذا أردتم فإنني سأرافقكم، إنما الآن فوراً. لقد تركت معازي طليقة ويمكن أن يسرقوها.

لم يسرقوا أيّاً منها لحسن الحظ؛ فرغم القشعريرة التي أثارتها فيه رؤية حالة الميت لدى وصولهم، إلا أن الشرطي لمح الصبي وهو يعدّ القطيع بأصابعه، وسمعه يتنهد بارتياح: «كلها موجودة».

وهتف سائق التكسي من وراء ظهره:

- ولكن.. يا للعذراء المقدسة. لكن، لكن... ما هذا؟

كان الراعي قد وصف لهما ما سيريانه تقريباً وهم في الطريق،

Twitter: @ketab_n

ولكن التخيل شيء والرؤية والشم شيء آخر. إذ كانت تنبعث من الجثة كذلك رائحة جد كريهة. وليس ذلك بالكثير تحت هذه الشمس التي تبدو وكأنها تثقب الأحجار والجماجم. ثم لا بد أن الجثة كانت تتفسخ بسرعة قصوى.

قال ليتوما:

- ألا تساعدني على إنزاله يا دون؟

فزمجر سائق التكسي وهو يرسم إشارة الصليب ويبصق باتجاه شجرة الخروب.

- وهل من مخرج. لو أنكم أخبرتموني لأي شيء ستُستخدم الفورد، لما كنت اشتريتها ولو بالمجان. أنت والملازم تستغلانني لأنكما تظنان أني مسالم جداً.

دون خيرونيمو هو سائق التكسي الوحيد في تالارا. ويمكن لسيارته القديمة، السوداء والكبيرة كعربات دفن الموتى، أن تجتاز في أي وقت السياج المعدني الذي يفصل القرية عن المنطقة المحظورة حيث تقع مكاتب وبيوت الأمريكيين العاملين في الانترناشيونال بترولوليوم كومباني. وكان الملازم سيلفا وليتوما يستخدمان السيارة كلما توجب عليهما الانتقال إلى مكان تكون الطريق إليه بعيدة على الجياد أو على الدراجة، وهما وسيلتا النقل الوحيدتان المتوفرتان في موقع شرطة الحرس الأهلي. وكان سائق التكسي يزمجر ويعترض في كل مرة يستدعيانه فيها قائلاً إنهم يجعلونه يخسر مالاً، بالرغم من أن الملازم كان يدفع له ثمن البنزين في مثل تلك الحالات.

قال ليتوما، حين كانا على وشك الإمساك بالميت:

- انتظر يا دون خيرونيمو، لقد تذكرت الآن. لا يمكننا لمسه إلى

Twitter: @ketab_n

أن يأتي القاضي ويقوم بالكشف.

فتنحنح السائق العجوز:

- هذا يعني أنه عليّ أن أقوم بالرحلة مرة أخرى. إنني أنبهك إلى أنه على القاضي أن يدفع لي الأجرة أو فليبحث له عن مغفل آخر ينقله.

وفور ذلك تقريباً، ضرب بيده على جبهته فاتحاً عينيه على اتساعهما، وقرب وجهه من الجثة وهتف:

- ولكنني أعرف هذا الرجل!

- من يكون؟

- إنه أحد جنود الطيران هؤلاء الذين جاؤوا بهم إلى القاعدة الجوية في حملة التجنيد الأخيرة ـ وانتعشت ملامح العجوز ـ إنه هو: البيوراني الذي يغني ألحان البوليرو.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

– أكان يغني أغنيات بوليرو؟ لا بد أنه هو الذي أخبرتك عنه إذن يا ابن العم ـ أكد المونو.

فوافق ليتوما:

– إنه هو. لقد تقصينا وثبت أنه هو: بالومينو موليرو، من كاستيبا. ولكن هذا وحده غير كاف لحل لغز معرفة من قتله.

كانوا يجلسون في بار تشونغا الصغير، المجاور للاستاد، حيث كانت تجري دون شك مباراة في الملاكمة، لأن صرخات المشجعين كانت تصل إليهم واضحة. لقد جاء الشرطي إلى بيورا مستغلاً يوم عطلته، أوصله سائق إحدى شاحنات شركة الانترناشيونال في الصباح، وستعيده إلى تالارا عند منتصف الليل. وقد اعتاد، كلما جاء إلى بيورا، أن يقتل الوقت مع ابني عمه ليون ـ خوسيه والمونو ـ ومع خوسيفينو، وهو صديق من حي لاغاييناثيرا. كان ليتوما والأخوان ليون من حي لامانغاتشيريا، وكان هناك عداء رهيب بين أهالي لامانغاتشيريا وأهالي لاغاييناثيرا، ولكن الصداقة بين هؤلاء الأربعة كانت تسمو فوق ذلك العائق. لقد كانوا طِفراً ولحمته، وكان

Twitter: @ketab_n

لهم نشيدهم، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم «المنيعون».

قال المونو ساخراً:

– حلّ هذه القضية يا ليتوما وسيرفعونك إلى رتبة جنرال.

– سيكون ذلك صعباً. فلا أحد يعرف شيئاً، ولا أحد رأى شيئاً، والأسوأ من كل ذلك هو أن السلطات لا تتعاون.

ففوجئ خوسيفينو:

– أوَليست السلطات هناك في تالارا هي أنت يا صديقي؟

– أنا والملازم سيلفا نمثل السلطة البوليسية. والسلطة التي لا تتعاون هي الطيران. وبما أن النحيل كان طياراً، فأي لعنة ستتعاون إذا هم لم يتعاونوا. ـ نفخ ليتوما الرغوة عن كأسه وجرع رشفة من البيرة فاتحاً فمه كتمساح ـ . يا لأبناء العاهرات! لو أنكم رأيتم كيف تركوه لما كنتم مبتهجين هكذا تخططون للذهاب إلى الماخور، ولأدركتم لماذا لا أستطيع التفكير بشيء آخر.

فقال خوسيفينو:

– ندرك ذلك. ولكن قضاء الوقت في الحديث عن جثة أمر ممل. فلا تزعجنا أكثر بميتك يا ليتوما.

وقال خوسيه:

– يحدث لك هذا لأنك دخلت سلك الشرطة. فالعمل استنزاف للنفس. ثم إنك غير صالح لهذا العمل. يجب أن يكون للشرطي قلب من حجر، وأن يكون ملعوناً بأمه إذا اقتضى الأمر. وأنت لست سوى عاطفي خرائي.

فوافق ليتوما قانطاً:

– هذا صحيح، إنني كذلك. لا أستطيع نزع النحيل من رأسي.

Twitter: @ketab_n

الكوابيس تداهمني، ويخيل إليّ أنهم سيهرسون خصيتي مثلما فعلوا به. يا للمسكين: كانت خصيتاه متدليتين حتى ركبتيه ومسطحتين كما البيض المقلي.

ضحك المونو وقال:

– وهل لمستهما يا ابن العم؟

وسأله خوسيه:

– بمناسبة الحديث عن البيض، هل ضاجع الملازم سيلفا البدينة؟

فأضاف خوسيفينو:

– هذه المغامرة تشدنا جميعاً. هل ضاجعها؟

تنهد ليتوما:

– بطريقته هذه التي يمضي فيها، سيموت دون أن يضاجعها.

نهض خوسيه عن المائدة:

– حسن، هلموا بنا إلى السينما لإضاعة الوقت، لأن الماخور قبل منتصف الليل ليس سوى سهرة حداد. إنهم يعرضون فيلم فروسية مكسيكي في سينما باريداديس، وفيه تشارك روسيتا كينتانا. والشرطي سيدفع طبعاً.

فقال ليتوما:

– لا أملك نقوداً لدفع ثمن هذه البيرة. أنتِ ستقرضينني، أليس كذلك يا تشونغيتا؟

فردت تشونغا من وراء الكونتوار، بمزاج ضجر:

– فلتقرضك تلك التي تعرفها.

قال ليتوما:

Twitter: @ketab_n

– لقد تصورت ردك عليّ. ولم أقل ذلك إلا لاستثارتك.

تثاءبت تشونغا قائلة:

– اذهب لاستثارة تلك التي تعرفها.

فقال المونو بمرح:

– اثنان صفر. تشونغا تكسب.

وقال ليتوما:

– لا تغضبي يا تشونغيتا، هاك حسابي. ولا تتدخلي بأمي، فالمسكينة ميتة ومدفونة في سيمبيلا.

التقطت تشونغا، وهي امرأة طويلة وجلفة دون سن محددة، الأوراق النقدية، وعدتها ثم أعادت الباقي إلى الحارس وهو يخرج من الحانة مع الأخوين ليون وخوسيفينو.

وتحداها خوسيفينو:

– سؤال يا تشونغا. ألم يحطم أي من الزبائن زجاجة على رأسك يوماً لأنك تردين بإجابات كهذه؟

فردت تشونغا دون أن تتكرم بالنظر إليه:

– لم يحصل أيها المتطفل.

– لا بد إذن أن يفعلها أحدهم في يوم من الأيام، لكونك لطيفة إلى هذا الحد.

– أراهن أنك لن تكون أنت. ردت تشونغا متثائبة وهي تجلس مجدداً وراء كونتوار البار المؤلف من صف من البراميل فوقها عارضة خشبية.

اجتاز المنيعون الأربعة الرمل ليصلوا إلى الطريق، ومروا من أمام نادي البيض في بيورا، وساروا باتجاه نصب غراو. كان الليل دافئاً،

Twitter: @ketab_n

وساكناً ومليئاً بالنجوم. تفوح فيه روائح خروب، وماعز، وبراز حمير، ومقالي. وتساءل ليتوما، الذي لم يستطع أن ينزع من رأسه صورة بالومينو موليرو المعلق والمزق، إذا ما كان عليه أن يندم لأنه صار شرطياً ولم يعش حياة المنيعين البوهيمية. لا، لن يندم. فمع أن العمل قاس، إلا أنه الآن يأكل يومياً، كما أن حياته تحررت من التردد الذي كان عليه من قبل. كان خوسيه والمونو وخوسيفينو يصفرون لحن فالس، محاولين جعل أصوات صفيرهم منسجمة مع بعضها، بينما هو يحاول أن يتصور النبرة الهادئة والرنة العميقة المؤثرة التي كان يغني بها النحيل كما يقول الجميع. وأمام مدخل سينما باريداديس ودع ابني عمه وخوسيفينو. وكذب عليهم: سائق شاحنة الانترناشيونال سيرجع إلى تالارا في وقت أبكر من عادته في المرات السابقة، وهو لا يريد أن يبقى دون وسيلة نقل توصله. وحاولوا انتزاع بعض السولات[1] منه، ولكنه لم يتنازل لهم ولو عن نصف سول.

انطلق سائراً نحو ساحة السلاح. وفي الطريق، لمح عند أحد المنعطفات الشاعر خواكين راموس، ذا المونوكل، وهو يجر العنزة التي يسميها غزالته. كانت الساحة تغص بالناس، وكأن بوق الرجوع إلى الثكنة سيعزف. لم يول ليتوما اهتماماً للعابرين، واجتاز الجسر القديم نحو كاستييا بسرعة، كمن هو ذاهب إلى موعد غرامي. كانت الفكرة قد تبلورت في ذهنه أثناء تناول البيرة في حانة تشونغا. وماذا لو كانت السيدة غير موجودة؟ وماذا لو أنها انتقلت إلى مدينة أخرى لتنسى مصابها؟

---

[1]- السولات: مفردها «سول»، وهي وحدة النقد الأساسية المستخدمة في البيرو.

Twitter: @ketab_n

ولكنه وجد المرأة أمام باب بيتها، جالسة على مقعد صغير، مستغلة برودة الليل وهي تفرط بعض عرانيس الذرة في صفيحة من التنك. ومن خلال باب البيت الصغير الذي كبيوت الحارات، كان يظهر في الغرفة المضاءة بمصباح كيروسين، الأثاث القليل: كراس من القش، بعضها مخروق، وطاولة، ونباتات قرع جوفاء، وصندوق لابد أنه يستخدم خزانة في الوقت نفسه، وصورة ملونة. ففكر: «إنه النحيل».

– مساء الخير. ـ قال وهو يتوقف أمام المرأة. وانتبه إلى أنها حافية القدمين وترتدي الثوب الأسود نفسه الذي كانت ترتديه هذا الصباح في مفوضية تالارا.

فدمدمت هي: «مساء الخير» ونظرت إليه دون أن تتعرف عليه. كانت بعض الكلاب الضامرة تتشمم وتزمجر حول المكان. وفي البعيد، كان يُسمع صوت جيتارات.

سألها بصوت ينم عن الاحترام:

– هل أستطيع التحدث إليك لحظة يا دونيا أسونتا؟... عن ابنك بالومينو.

وتمكن ليتوما في العتمة الخفيفة من رؤية الوجه المحفور بالتجعدات، وعينيها شبه المغطاتين بالجفون المتورمة وهما تتفحصانه بريبة. أكانت عيناها بهذه الحالة دوماً، أم أنهما تورمتا في الأيام الأخيرة من كثرة البكاء؟

– ألم تعرفيني؟ إنني الشرطي ليتوما، من موقع تالارا. لقد كنتُ هناك حين أخذ الملازم سيلفا أقوالك.

رسمت السيدة إشارة الصليب، ودمدمت بشيء غير مفهوم،

Twitter: @ketab_n

ورآها ليتوما وهي تنهض واقفة بمشقة. دخلت إلى البيت وهي تجر صفيحة التنك المتلئة بحبوب الذرة والمقعد الصغير. لحق بها، وما إن أصبح تحت السقف، حتى نزع قبعته. وقد تأثر حين فكر بأن هذا البيت كان مسكن النحيل. لم يكن ما يفعله مهمة بتكليف من رئيسه وإنما مبادرة ذاتية؛ حتى لا يأتيه من جراء ذلك أوجاع رأس.

– هل وجدتموه؟ ـ همست المرأة بالصوت المرتعش ذاته الذي تكلمت به في تالارا، حين قدمت إفادتها. ثم تركت نفسها تهوي على الكرسي. وبما أن ليتوما كان ينظر إليها دون أن يفهم ما تعينه، فقد رفعت صوتها: ـ جيتار ابني، هل وجدتموه؟

– ليس بعد. ـ قال ليتوما متذكراً. فقد ألحت السيدة أسونتا كثيراً على أن يعيدوا إليها جيتار النحيل، وهي تلهث وتجيب على أسئلة الملازم سيلفيا. ولكنه لم يعد يتذكر، لا هو ولا الملازم، هذه المسألة بعد أن ذهبت السيدة. ـ لا تقلقي، سنجده عاجلاً أو آجلاً، وسأحضره لك بنفسي.

عادت ترسم إشارة الصليب، وبدا لليتوما أنها ترقيه. وفكر: «إنني أُذكّرها بفجيعتها».

سمعها ترتل، بفمها الذي لا يكاد يوجد فيه سوى سن واحدة أو اثنتين:

ـ كان يريد ترك الجيتار هنا وأنا قلت له خذه، خذه! لا يا ميمتي، ليس لدي وقت للعزف في القاعدة، ولست أدري إن كانت هناك خزانة للاحتفاظ به، فليبق هنا، سأعزف حين أرجع إلى بيورا. لا، لا يا بني، خذه، لتتسلى، ليرافقك حين تغني. لا تحرم

Twitter: @ketab_n

نفسك من جيتارك الذي تحبه كثيراً يا بالومينو. آي، آي، آي، يا ولدي المسكين.

انفجرت بالبكاء وندم ليتوما لأنه جاء لمجرد استدعاء الذكريات المشؤومة للمرأة. تمتم ببعض عبارات العزاء وهو يحك رقبته. ولكي يفعل شيئاً، جلس. أجل، إنها صورته وهو يؤدي المناولة الأولى. تأمل طويلاً وجه الطفل الأسمر المتطاول ذا الزوايا الواضحة، والشعر المناسب تماماً، باللباس الأبيض، وفي يده اليمنى شمعة، وكتاب صلوات في اليسرى وتعويذة معلقة على الصدر. لقد لون له المصور وجنتيه وشفتيه بشيء من اللون الأحمر. صبي ضعيف، ذو وجه ذاهل، وكأنه يرى الطفل ـ الرب.

أجهشت دونيا أسونتا، مشيرة إلى الصورة:

– مذ كان في هذه السن كان يغني غناء شجياً. وكان الأب غارسيا يسمح له بالغناء منفرداً في الكورال، وكانوا يصفقون له أثناء القداس.

فعلق ليتوما:

– الجميع يقولون إنه كان يتمتع بصوت رائع. وكان يمكن له أن يصير فناناً من هؤلاء الذين يغنون في الإذاعة ويقومون بجولات فنية. الجميع يقولون ذلك. يجب ألا يؤدي الفنانون الخدمة العسكرية، يجب إعفاؤهم منها.

قالت السيدة أسونتا:

– لم يكن على بالومينو أن يؤدي الخدمة العسكرية. كان معفى منها.

بحث ليتوما عن عينيها. فرسمت السيدة إشارة الصليب

Twitter: @ketab_n

وانفجرت بالبكاء من جديد. وبينما هو يسمعها تبكي، راح يراقب الحشرات التي تحوم حول المصباح. كانت بالعشرات، وكانت تهوي وهي تئز مصطدمة بالزجاج مرة بعد أخرى، محاولة الوصول إلى اللهب. يا للهمجية! إنها تريد الانتحار.

نشجت دونيا أسونتا:

– لقد قال العراف إننا سنجدهم عندما نجد الجيتار. فالذين يملكون جيتاره هم الذين قتلوه. قتلة! قتلة!

أومأ لها ليتوما موافقاً. كان يشعر برغبة في التدخين، ولكن إشعال سيجارة أمام آلام هذه السيدة، بدا له وقاحة.

سألها بخجل:

– أكان ابنك معفى من الخدمة العسكرية؟

وتلت عليه دونيا أسونتا ما تحفظه عن ظهر قلب:

– ابن وحيد لأم أرملة. كان بالومينو هو الابن الوحيد، لأن ابني الآخرين توفيا. هذا هو القانون.

وعاد ليتوما لحك رقبته، موقناً أن البكاء سيتجدد:

– صحيح، هناك تجاوزات كثيرة تُقترف. لم يكن لهم الحق بتجنيده إذن؟ يا للتعسف. لو لم يجندوه، لكان حياً الآن بكل تأكيد.

نفت دونيا أسونتا ذلك وهي تمسح عينيها بطرف تنورتها. وفي البعيد كانت رنة الجيتار ما تزال مسموعة، وخطرت لليتوما فكرة خيالية هي أن من يعزف، هناك في الظلام، ربما عند ضفة النهر، ناظراً إلى القمر، هو النحيل.

ونشجت دونيا أسونتا:

Twitter: @ketab_n

– لم يجندوه، بل ذهب متطوعاً بنفسه. لم يجبره أحد. لقد انضم إلى الطيران لأنه أراد ذلك. هو من بحث عن حتفه بنفسه.

بقي ليتوما يتفحصها بصمت. إنها امرأة قصيرة، قدماها الحافيتان تلامسان الأرض برفق.

– ركب الحافلة، وذهب إلى تالارا، وقدم نفسه هناك في القاعدة وقال إنه يريد أن يؤدي الخدمة العسكرية في سلاح الطيران. يا للمسكين! بحث عن موته يا سيدي. هو وحدة.. بنفسه. يا لبالومينو المسكين!

قال ليتوما:

– ولماذا لم تخبري الملازم سيلفا بذلك، هناك في تالارا؟

– وهل سألني؟ أنا أجبت على كل ما سألوني عنه.

كان ذلك صحيحاً. سألها إذا ما كان لبالومينو أعداء، وإذا كانوا قد هددوه، وإذا كانت قد سمعته يجادل أحداً أو يتشاجر مع أحد، إذا ما كانت تعرف أحداً لديه أسباب لإيذائه، إذا ما كان قد قال لها إنه يفكر بالهرب من القاعدة. وقد أجابت السيدة بانقياد على جميع الأسئلة قائلة: لا، لا أحد مطلقاً. ولكن هذا صحيح، إذ لم يخطر للملازم أن يسألها إذا كان النحيل قد دخل الخدمة لأن قرعته كانت كذلك أم أنه ذهب متطوعاً.

– أي أنه كان معجباً بالحياة العسكرية؟ ـ قال ليتوما مذهولاً. فالفكرة التي تكونت لديه عن مغني البوليرو كانت مغلوطة إذن.

وأجهشت دونيا أسونتا:

– هذا ما لم أفهمه. لماذا فعلت هذا يا بني؟ أنت في سلاح الطيران؟ أنت، أنت! وهناك.. في تالارا؟ الطائرات تسقط، أتريد

Twitter: @ketab_n

أن تميتني هلعاً؟ كيف استطعت عمل شيء كهذا دون أن تستشيرني!؟ لأني إذا استشرتك ستقولين لا يا أماه. لماذا ذهبت إذن يا بالومينو؟ لأني أحتاج للذهاب إلى تالارا. إنها مسألة حياة أو موت يا أماه.

وفكر ليتوما: «بل هي مسألة موت».

– ولماذا كان الذهاب إلى تالارا مسألة حياة أو موت في نظر ابنك يا سيدتي؟

رسمت دونيا أسونتا إشارة الصليب للمرة الرابعة أو الخامسة:

– هذا ما لم أعرفه قط. لم يشأ أن يخبرني، وقد حمل سره معه إلى السماء. آي، آي! لماذا فعلت بي هذا يا بالومينو؟

كانت عنزة داكنة اللون، تخالطها بقع بيضاء، قد أطلت برأسها إلى الحجرة وأخذت تتأمل المرأة بعينيها الواسعتين المشفقتين. ولكن شبحاً اقتادها بشدّ الحبل المربوطة به.

استغرق ليتوما متخيلاً:

– وقد ندم بعد فترة قصيرة من تورطه. حين اكتشف أن الحياة العسكرية ليست خبزاً سهلاً ونساء مهديات، كما قد يكون حسب من قبل. وإنما هي شيء أكثر إزعاجاً، أكثر إزعاجاً من ذلك بكثير. ولهذا فرّ من الخدمة. هذا أمر يمكنني أن أفهمه على الأقل. أما ما لا يُمكن فهمه فهو لماذا قتلوه. وبتلك الطريقة البربرية.

لقد فكر بصوت مسموع، ولكن لم يبد على دونيا أسونتا أنها فهمته. وربما يكون قد ورط نفسه في الخدمة ليغادر بيورا، لأن الأمر كان في نظره مسألة حياة أو موت. كان هناك من هدده هنا في المدينة وفكر بأنه سيكون بمأمن في تالارا، داخل قاعدة جوية. لكنه

Twitter: @ketab_n

لم يستطع تحمل الحياة العسكرية وفرّ من الخدمة. ثم وجده ذلك الشخص أو أولئك الأشخاص الذين غادر بيورا هرباً منهم فقتلوه. ولكن، لماذا قتلوه بتلك الصورة؟ لا بد أن يكونوا مهووسين أو متوحشين حتى يعذبوا بتلك الطريقة، فتى يكاد لا يزال صبياً. هنالك كثيرون يدخلون الجيش بسبب أحزان الحب أيضاً. وربما يكون قد فعل ذلك لخيبة أمل غرامية. قد يكون مولعاً بحب فتاة تخلت عنه، أو خدعته، وتحت وطأة المرارة، قرر الذهاب بعيداً. إلى أين؟ إلى تالارا. كيف؟ بالدخول في سلك الطيران. وبدا له ذلك ممكناً ومستحيلاً في الوقت ذاته. فعاد يهرش رقبته بعصبية.

وواجهته دونيا أسونتا فجأة بجفاء:

– لأي شيء أتيت حضرتك إلى بيتي؟

أحس أنه في وضع زائف. لماذا جاء إذن؟ لا لشيء، لمجرد فضول وخيم فقط. فتلعثم:

– لأرى إن كان بإمكانك أن تقدمي لي أي بصيص.

كانت دونيا أسونتا تنظر إليه مستاءة، وفكر الحارس: «لقد انتبهت إلى أنني أكذب عليها».

ودمدمت متألمة:

– ألم تستبقوني حوالي ثلاث ساعات هناك، وأخبرتكم بما أعرفه؟ ما الذي تريدونه أكثر. ماذا أكثر، ماذا أكثر. أتظنون أنني أعرف من الذي قتل ابني؟

فاعتذر ليتوما:

– لا تتضايقي يا سيدتي. لا أريد إزعاجك، ها أنذا ذاهب. شكراً جزيلاً لأنك استقبلتني. سنخبرك عن أي جديد نتوصل إليه.

Twitter: @ketab_n

نهض واقفاً، ودمدم: «طابت ليلتك» وخرج دون أن يمد إليها يده ليصافحها، لأنه خشي أن تتجاهلها دونيا أسونتا وتتركها ممدودة في الهواء. وضع قبعته كيفما اتفق. وبعد عدة خطوات متعثرة في شارع كاستييا الترابي الضيق، تحت النجوم اللامعة التي لا تحصى، استعاد هدوءه. لم يعد يسمع صوت الجيتار البعيد، وإنما أصواتاً مجرحة لصبية يتشاجرون أو يلعبون، ولغط العائلات التي يتبادل أفرادها الحديث أمام أبواب بيوتهم، وبعض النباح. وفكر: ماذا أصابك؟ لماذا أنت مضطرب هكذا؟ يا للنحيل المسكين. لن أعود المستهتر غير المبالي الذي كنته قبلاً ما لم أفهم كيف يمكن أن يكون في الدنيا أناس أشرار إلى هذا الحد. خصوصاً وأن الضحية، وكيفما قلبت الأمر، يبدو أنه كان فتى طيباً، غير قادر على إيذاء ذبابة.

وصل الجسر القديم، وبدلاً من أن يجتازه، ليرجع إلى المدينة، دخل إلى **الريوبار**، المشيد بالأخشاب فوق هيكل أقدم جسر يصل بين ضفتي نهر بيورا. أحس بأن حلقه جاف كأنه قطعة من ورق الصنفرة. وكان **الريوبار** خاوياً من الزبائن.

ما كاد يجلس على الكرسي الذي بلا مسند حتى دنا منه موسيس، صاحب الحانة والنادل فيها، ذو الأذنين الطويلتين الناقوسيتين. والذي كانوا يطلقون عليه لقب دومبو.

– لم أعتد على رؤيتك بالبدلة الرسمية يا ليتوما ـ قال ساخراً وهو يقدم له كأساً من عصير اللوكوما: ـ إنك تبدو لي وكأنك متنكر. وأين جماعة المنيعين؟

فقال ليتوما وهو يشرب بنهم:

– ذهبوا لرؤية فيلم فروسية مكسيكي. أنا عليّ أن أرجع إلى تالارا الآن فوراً.

Twitter: @ketab_n

وقال موسيس وهو يقدم له سيجارة:

– كم هي لعينة مِيتة بالومينو موليرو. هل صحيح أنهم قطعوا خصيتيه؟

فدمدم ليتوما متكدراً لأن ذلك هو ما يحاول الجميع معرفته قبل كل شيء. ولأن موسيس أيضاً سيبدأ الآن بالتندر على خصيتي النحيل:

– لم يقطعوهما تماماً، وإنما انتزعوهما من موضعهما.

– حسن، إنه الشيء نفسه. ـ حرك دومبو أذنيه الكبيرتين وكأنهما جناحا حشرة عملاقة. لقد كان له أنف عظيم كذلك ولحية ناشزة. إنه ظاهرة فريدة متكاملة.

سأله ليتوما:

– هل كنت تعرف الفتى؟

– وأنت كنت تعرفه كذلك، إنني متأكد. ألا تتذكره؟ كان البيض يتعاقدون معه ليعزف السرينادات، ويدعونه للغناء في الحفلات، وفي الموكب الديني، وفي نادي غراو. كان يغني مثل ليو ماريني، أقسم لك. لا بد أنك تعرفت عليه يا ليتوما.

– الجميع يقولون ذلك. الأخوان ليون وخوسيفينو يقولون إننا كنا معاً في إحدى الليالي وإنهم جعلوه يغني في حانة تشونغا، ولكنني لا أتذكر.

أغمض عينيه، واستعرض مرة أخرى تلك الليالي، شديدة الشبه ببعضها، حول طاولة خشبية مدججة بالزجاجات، حيث الدخان يلهب العيون، ورائحة الكحول، وأصوات السكارى، والأشباح المختلطة، وأوتار جيتار يعزف فالسات وتونديرات. أيمكنه فجأة،

Twitter: @ketab_n

في فوضى تلك الليالي، أن يميز الصوت الفتي، المرتعش، المدغدغ، الذي يدفع إلى الرقص ومعانقة امرأة والهمس لها بكلمات رقيقة؟ لا، إنه لا يظهر في أي مكان في ذاكرته. لا بد أن ابني عمه وخوسيفينو مخطئون، فهو لم يكن موجوداً، ولم يسمع قط غناء بالومينو موليرو:

قال موسيس وهو ينفث الدخان من أنفه وفمه:

– هل تقصيتم عن القتلة؟

فقال الحارس:

– ليس بعد. هل كنتَ صديقاً له؟

فاتكأ موسيس وقال:

– كان يأتي أحياناً لتناول العصير. هذا لا يعني أننا كنا صديقين حميمين. لكننا كنا نتبادل الحديث.

– هل كان محدثاً مرحاً ومنفتحاً؟ أم أنه كان جافاً وأميل إلى الجد؟

قال موسيس:

– كان صموتاً وخجولاً. رومنطيقياً، ما يشبه الشاعر. من المؤسف أنهم جندوه، لا بد أنه قاسى كثيراً من نظام الثكنة.

وقال ليتوما وهو يتذوق آخر قطرات عصير اللوكوما:

– لم يجندوه، كان معفى من الخدمة. لقد تقدم متطوعاً، وهو ما لم تفهمه أمه. ولا أنا أيضاً.

هز دومبو أذنيه:

– هذه هي الأمور التي يُقدم عليها العشاق المخدوعون.

فوافقه ليتوما:

Twitter: @ketab_n

– وهذا ما أفكر به أنا أيضاً. ولكن ذلك لا يوضح لنا من هم الذين قتلوه ولا دوافع القتل.

دخلت جماعة من الرجال إلى **الريوبار**، ومضى موسيس ليلبي طلباتهم. كان ذلك الوقت هو موعد الذهاب للقاء سائق شاحنة الانترناشيونال الذي سيرجع معه إلى تالارا، لكنه كان يشعر بضعف شديد. لم يتحرك. كان يرى النحيل وهو يدوزن أوتار الجيتار، أو يراه في عتمة الشوارع حيث يعيش البيض من أهالي بيورا، تحت شرفات خطيباتهم وحبيباتهم، ليسحرهن بصوته البديع. ثم يراه بعد ذلك وهو يتلقى المكافآت التي يمنحونها إليه مقابل السرينادات. هل اشترى الجيتار بجمعه تلك المكافآت خلال شهور عديدة؟ ولماذا كان ذهابه من بيورا هو مسألة حياة أو موت بالنسبة إليه.

قال موسيس وهو يحرك أذنيه بحنق:

– الآن تذكرت أنه كان كذلك.

– كان ماذا؟ ـ وضع ليتوما ثمن عصير اللوكاما على الكونتوار.

– كان عاشقاً حتى عنقه. لقد أخبرني بشيء من ذلك. إنه حب مستحيل، هذا ما قاله لي.

– أهي امرأة متزوجة؟

– وما أدراني يا ليتوما! هناك كثير من الغراميات المستحيلة؛ التعلق براهبة مثلاً. ولكنني أذكر جيداً أنني سمعته يقول ذلك في أحد الأيام. لماذا تبدو كل هذه المرارة في وجهك أيها النحيل المغني؟ لأنني عاشق يا موسيس، وحبي مستحيل. لهذا السبب تطوع في الطيران إذن.

Twitter: @ketab_n

– ألم يقل لك لماذا كان حبه مستحيلاً؟ أو من تكون هي؟

نفى موسيس بحركة من رأسه وأذنيه في الوقت ذاته:

– قال فقط إنه لا يراها إلا خفية. وإنه يعزف لها سرينادات عن بعد، في الليل.

– أرى ذلك ـ قال ليتوما. وتخيل النحيل يهرب من بيورا خوفاً من زوج غيور هدده بالقتل. «إذا عرفنا من هيٍ التي كان يحبها، ولماذا كان حبه مستحيلاً، فسيفيدنا ذلك كثيرا». ربما كان هذا هو تفسير القسوة التي عاملوه بها: غضب زوج غيور.

وأضاف موسيس:

– إذا كان هذا يفيدك، فيمكنني أن أقول لك إن حبيبته كانت تعيش في المطار.

– في المطار؟

– في إحدى الليالي كنا نتبادل الحديث هنا، وكان بالومينو موليرو جالساً حيث تجلس أنت الآن. وسمع أن أحد أصدقائي سيذهب إلى تشيكلايو، فسأله إن كان يستطيع إيصاله حتى المطار. وما الذي ستفعله في المطار في هذا الوقت أيها النحيل المغني؟. «سأذهب لأعزف سيرنادا لمحبوبتي يا موسيس». هذا يعني أنها تعيش في تلك الأنحاء.

– ولكن لا أحد يعيش هناك. لا يوجد هناك سوى رمال وأشجار خروب يا موسيس.

هز دومبو أذنيه وقال:

– فكر قليلاً يا ليتوما. ابحث، ابحث.

هرش الحارس رقبته:

– صحيح. هناك توجد القاعدة الجوية وإلى جوارها بيوت الطيارين.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

– أجل، أجل، بيوت الطيارين ـ كرر الملازم سيلفا ـ . إنه دليل. لن يستطيع العاهر أن يقول لنا الآن إننا نأتي لإضاعة وقته.

لكن ليتوما انتبه إلى أن الملازم، بالرغم من متابعته المحادثة معه ومن حديثه عن موعد مع قائد القاعدة الجوية، إلا أن روحه وجسده كانا يتابعان حركات دونيا أدريانا التي كانت تكنس المطعم. وكانت حركاتها السريعة والساهية ترفع أحياناً ذيل تنورتها إلى ما فوق الركبتين، كاشفة عن الفخذ الغليظ المتمرس، وحين تنحني لالتقاط القمامة، يظهر أصل ثدييها الطليقين المتكبرين تحت الثوب القطني الخفيف. ولم تكن عينا الضابط اللتان تلمعان بوميض جشع تضيعان حركة واحدة من حركات صاحبة المطعم. لماذا تهيج دونيا أدريانا الملازم سيلفا إلى هذا الحد؟ لم يكن ليتوما ليفهم ذلك. كان الملازم شاباً أبيض وغير ناضج تماماً، ذا شارب أشقر ونظارة شمسية لا ينـزعها عن عينيه إلا نادراً، بإمكانه أن يضع أي واحدة من بنات تالارا في جيبه. لكنه لم يكن يهتم بغير دونيا أدريانا. وقد اعترف بذلك لليتوما: «اللعنة، هذه البدينة تجعلني أصاب بالخناق». من يفهم ذلك؟ كان لها من العمر ما يجعلها تبدو كأمه، وقد بدأ الشيب يلمع في ثنايا شعرها السبط، ثم إنها بدينة ذات

Twitter: @ketab_n

تكورات في كل أنحاء جسدها. إنها واحدة من أولئك اللواتي يطلق عليهن «خاصرة الجنط». وهي متزوجة من ماتياس، صياد السمك الذي يخرج للصيد في الليل وينام في النهار. وفي القسم الخلفي من المطعم كان بيتها. ولها عدة أبناء راشدين يعيشون مستقلين، ويعمل اثنان منهم مستخدمين في الانترناشيونال بترليوم كومباني.

– إذا ما بقيت تنظر إلى دونيا أدريانا هكذا فستهترئ عيناك يا سيدي الملازم. ضع نظارتك على الأقل.

– إنها تصبح صبية أشهى كل يوم ـ دمدم الملازم بذلك دون أن يرفع نظره عن ألياف مكنسة دونيا أدريانا. وفرك الخاتم المذهب الذي في بنصره ببنطاله وأضاف: ـ لست أدري ما الذي تفعله بنفسها، ولكنها في الحقيقة تصبح أشهى وأجمل كل يوم.

كانا قد تناولا فنجاناً من حليب المعز وسندويتش جبن دسم بينما هما ينتظران سائق التكسي. كان الكولونيل ميندرياو قد حدد لهما الموعد في الثامنة والنصف. وكانا الزبونين الوحيدين في المطعم، وهو هيكل ضعيف من القصب والحصائر والتوتياء، فيه رفوف مملوءة بزجاجات وصناديق وعلب، وبضعة طاولات ملتوية، وهناك في أحد الأركان موقد بريموس، حيث تطهو دونيا أدريانا الطعام لزبائنها. ومن فتحة في الجدار، دون باب، تظهر في أقصى المحل الحجرة التي ينام فيها ماتياس بعد قضاء الليل في عرض البحر.

– لا تعرفين كمية الزهور التي رماك بها الملازم وأنت تكنسين يا دونيا أدريانا ـ قال ليتوما ذلك مبتسماً ابتسامة عذبة. وكانت صاحبة المطعم راجعة وردفاها يتأرجحان، وهي ترفع المكنسة إلى أعلى: ـ يقول إنك أكثر نساء تالارا جاذبية على الرغم من سنواتك وكيلوغراماتك.

Twitter: @ketab_n

فهمس الملازم سيلفا وهو يضع قناع العاشق المغازل:

– أقول ذلك لأنني مقتنع به. ثم لأنه الحقيقة. والسيدة تعرف ذلك بما فيه الكفاية.

تنهدت دونيا أدريانا وهي تجلس على مقعد إلى جانب الكونتوار، وتبدي وجهاً يكسوه الأسى.

– قل لهذا الملازم أن يقوم بعمله بدلاً من الإقدام على حماقات مع أم الأسرة. قل له، بدلاً من مضايقة سيدات متزوجات، ابحث عن قتلة ذلك الشاب.

فرقع الملازم لسانه ببذاءة:

– وإذا وجدتهم، ماذا؟ هل ستكافئينني بليلة أقضيها معك؟ مقابل جائزة كهذه سأجدهم وآتي بهم مقيدين عند قدميك. أقسم لك.

«يقول ذلك وكأنه يتملكها في حضنه»، فكر ليتوما. وكان يستمتع بألعاب الملازم، لكنه تذكر النحيل فانتهى مرحه. لو أن هذا الكولونيل اللئيم ميندرياو يتعاون، لكان الأمر أكثر سهولة. لو أنه يتدخل بجد ويضع كتفاً معهما، وهو الذي يملك المعلومات والحيثيات، ويستطيع استجواب العاملين في القاعدة، فإن دليلاً سيظهر وسيُلقى القبض على أولئك الملعونة أمهم. ولكن الكولونيل ميندرياو كان أنانياً. لماذا رفض مساعدتهم؟ لأن الطيارين يظنون أنهم أمراء تجري في عروقهم دماء زرقاء. وهم يحتقرون الحرس الأهلي وينظرون إليه من فوق أكتافهم باستخفاف.

– أفلت أيها الوقح وإلا سأوقظ ماتياس ـ قالت دونيا أدريانا بغضب وهي تلوح بيدها. كانت قد مدت علبة سجائر من نوع إنكا

Twitter: @ketab_n

إلى الملازم سيلفا، فأمسك هذا بيدها ـ. اذهب للمس خادمتك أيها البارد، وليس أم أسرة.

أفلتها الملازم ليشعل سيجارته، وزايل الغضب دونيا أدريانا. إنها هكذا دائماً: تتوقد مثل عود ثقاب حيال المغازلة والأيدي الطويلة، ولكنها ربما تكون في أعماقها راضية عن ذلك. «جميعهن عاهرات إلى حد ما»، فكر ليتوما بضيق.

وقالت دونيا أدريانا:

– لا حديث في القرية إلا هذا الحديث. إنني أعيش هنا منذ ولدت، ولم يحدث قط، طوال السنوات التي عشتها، أن شهدت تالارا عملية قتل شريرة كهذه. الناس هنا يقتتلون كما يشاء الله، في مشاجرات متكافئة، رجلاً لرجل. أما هكذا، بالصلب والتعذيب، فلم يحدث قط. وأنتم لا تفعلون شيئاً، يا للعار.

قال الملازم سيلفا:

– إننا نفعل يا ميمتي. لكن الكولونيل ميندرياو لا يساعدنا. لا يسمح لي باستجواب زملاء بالومينو موليرو. هم يعرفون شيئاً دون شك. إننا ضائعون بسببه. لكن الحقيقة ستظهر، عاجلاً أو آجلاً.

تنهدت دونيا أدريانا:

– مسكينة أم ذلك الفتى. الكولونيل ميندرياو يظن نفسه ملك روما، تكفي رؤيته حين يأتي إلى البلدة وابنته ممسكة بذراعه. إنه لا يحيي ولا ينظر إلى أحد. وهي أسوأ منه. يا للخسة!

لم تكن الساعة قد بلغت الثامنة بعد، ومع ذلك فقد كانت الشمس حارقة. كانت أحزمة من الأشعة الذهبية تخترق الحصائر وتنفذ من خلال فجوات القصب والتوتاء، فيبدو المطعم وكأنه

Twitter: @ketab_n

مُخترَق برماح مضيئة تطفو فيها ذرات من الغبار وتحوم عشرات الذبابات. لم يكن ثمة أناس كثيرون في الشارع. وكان بمقدور ليتوما أن يسمع، منخفضاً، صوت ارتطام الأمواج بالحائل وتراجع الماء عن الشاطئ. كان البحر قريباً جداً، وكانت رائحته تعبق في الجو.. رائحة ذكية تشرح الصدر، لكنها مخادعة، فهي توحي بشواطئ جميلة، ذات مياه صافية، بينما بحر تالارا مشبع دوماً ببقايا البترول ونفايات سفن الميناء.

هتفت دونيا أدريانا:

– يقول ماتياس إن صوت الفتى كان إلهياً، وإنه كان فناناً.

فسأل الملازم:

– وهل كان دون ماتياس يعرف بالومينو موليرو؟

قالت دونيا أدريانا:

– لقد سمعه وهو يغني في ليلتين، بينما كان يعدّ شباك الصيد.

كان العجوز ماتياس كيريكوتيو ومساعداه يحملون الشباك والطعوم إلى الزورق **ليون دي تالارا**، حين سمعوا فجأة ألحان جيتار. كان القمر صافياً جداً ومنيراً بحيث لم تكن هناك حاجة لإضاءة المصباح اليدوي لمعرفة أن تلك المجموعة من الأشباح التي تبدو على الشاطئ هم ستة طيارين. وحين بدأ الفتى بالغناء، ترك ماتياس ومساعداه شباك الصيد واقتربوا. كان للفتى صوت شجي. يبعث انعكاسه الرغبة في البكاء ويكهرب الظهور في أغنية «**روحان**»، وعندما انتهى صفقوا له. وطلب ماتياس كيريكوتيو الإذن بمصافحة يد المغني. وقال له مهنئاً: «لقد ذكرتني بشبابي. وبعثت فيّ الحزن». وهناك علم أنه بالومينو موليرو، أحد المجندين

Twitter: @ketab_n

في الحملة الأخيرة، وأنه من بيورا. وسمع ماتياس أحد الطيارين يقول: «يمكنك أن تغني من إذاعة بيورا يا بالومينو». ومنذ ذلك الحين رآه زوج دونيا أدريانا مرتين أخريين، على الشاطئ ذاته، بين الزوارق الراسية، في ساعة تجهيز القارب **ليون دي تالارا** للخروج إلى الصيد. وفي المرتين كان يتوقف عن العمل للاستماع إليه.

وأكدت دونيا أدريانا:

– إذا كان ماتياس قد فعل ذلك، فليس من شك في أنه كان للفتى صوت ملاك. لأن ماتياس لا ينفعل بسهولة، وهو أقرب إلى البرودة.

وفكر ليتوما: «لقد قدمت له المعلومة على طبق».

وفعلاً، لعق الملازم شفتيه كقط:

– أتعنين أنه لا يضاجع يا دونيا أدريانا؟ أنا أستطيع تدفئتك إذا شئت. إنني مثل فحم متأجج.

ضحكت دونيا أدريانا:

– لستُ بحاجة لتدفئتك. حين أبرد، أدفئ فراشي بزجاجات ماء ساخن.

خرخر الملازم سيلفا، زاماً شفتيه باتجاه دونيا أدريانا وكأنه سيمتصها:

– الدفء البشري ألذ يا ميمتي.

في هذه الأثناء جاء دون خيرونيمو باحثاً عنهما. لم يتمكن من الوصول بالتكسي حتى المطعم، فالطريق رملي وسيعلق فيه دون ريب، ولهذا ترك سيارته الفورد على الطريق العام، على بعد حوالي مئة متر. وَقّع الملازم سيلفا والشرطي إيصالاً بالفطور وودعا دونيا

Twitter: @ketab_n

أدريانا. وفي الخارج لفحتهما الشمس دون رحمة. فبالرغم من أن الساعة كانت الثامنة والربع، إلا أن الحر كان كحر الظهيرة. وفي الضوء المبهر، بدت الأشياء والناس وكأنها ستذوب في أية لحظة.

قال دون خيرونيمو بينما هم يمشون وأقدامهم تنغرس في الأرض اللينة:

– تالارا تغص بالهمس. اعثر على هؤلاء القتلة وإلا سيشنقك الناس أيها الملازم.

فهز الملازم كتفيه:

– فليشنقوني. أقسم أنني لم أقتله.

بصق دون خيرونيمو حين وصلوا إلى التكسي:

– إنهم يتفوهون بأشياء. ألم تتقد أذناك؟

ورد الملازم:

– أذناي لا تتقدان أبداً. ماذا يقولون مثلاً؟

– إنكم تطمسون القضية لأن القتلة هم من الأسماك الكبيرة. ـ قال دون خيرونيمو وهو يدير ذراع تشغيل المحرك. ثم كرر وهو يغمز بإحدى عينيه: ـ هل توجد أسماك كبيرة حقاً أيها الملازم؟

جلس الملازم على الكرسي الأمامي قائلاً:

– لا أعرف إن كانت كبيرة أم صغيرة، وإن كانت أسماكاً عادية أم أسماك قرش. ولكنهم سيقعون الوقعة ذاتها. الملازم سيلفا يشخ شخة أولبية على الأسماك الكبيرة يا دون خيرونيمو. والآن، أسرع، لا أريد الوصول متأخراً إلى موعد الكولونيل.

كان الملازم في الحقيقة رجلاً مستقيماً، ولهذا السبب كان ليتوما يشعر نحوه بالإعجاب، فضلاً عن التقدير. كان ظريفاً صريحاً في

Twitter: @ketab_n

ظرافته، وسكيراً إلى حد ما، وحين يتعلق الأمر بالبدينة صاحبة المطعم، فإنه يفقد رشده. لكن ليتوما، وخلال الفترة التي عمل فيها تحت أمرته، وجد فيه الشخص ذاته دوماً، ففي جميع الشكاوى والنزاعات التي تصل إلى المفوضية، كان يعمل لإقرار العدالة، دون محاباة أحد.

– ما الذي اكتشفتموه حتى الآن أيها الملازم؟ ـ كان دون خيرونيمو يطلق نفير السيارة، لكن الصبية الرعاة، والكلاب، والخنازير، والمعز، والحمير التي كانت تعبر أمام التكسي لم تسرع ولو قليلاً.

فقال الملازم لاوياً فمه:

– ولا أي خراء.

وسخر سائق التكسي قائلاً:

– ليس هذا بالكثير.

سمع ليتوما رئيسه يكرر ما كان قد قاله هذا الصباح:

– ولكننا سنكتشف اليوم شيئاً، إن ذلك يعبق في الهواء.

كانوا قد وصلوا إلى تخوم القرية، وإلى يمين الطريق ويساره كانت تظهر أبراج آبار البترول، المنتصبة في الأرض الصخرية القاحلة. وفي البعيد، تلمع سقوف القاعدة الجوية. «عسى أن نحصل على أي شيء»، قال ليتوما، كأنه الصدى. أيمكن التوصل يوماً إلى معرفة من الذي قتل النحيل ولأي سبب قتله؟ وأكثر من شعوره بضرورة العدالة والانتقام، كان يشعر بفضول نهم لرؤية وجوه القتلة، وسماع الأسباب التي حدت بهم لفعل ما فعلوه ببالومينو موليرو.

Twitter: @ketab_n

في موقع حراسة القاعدة، تفحصهما ضابط الخدمة من أعلى إلى أسفل، وكأنه لا يعرفهما. وجعلهما ينتظران تحت الشمس الحارقة، دون أن يفكر بإدخالهما إلى الظل في المكتب. وبينما هما ينتظران، ألقى ليتوما نظرة حوله. يا لأبناء العاهرة، كم هم منعمون! يا حلاوة العيش والعمل في مكان كهذا! إلى اليمين تنتصب بانتظام بيوت الضباط المتماثلة، المبنية من الخشب والمستندة إلى أعمدة، والمطلية باللونين الأزرق والأبيض، وقد ألحقت بها حدائق صغيرة مزروعة بالخبازيات المعتنى بها جيداً، وعلى أبوابها ونوافذها شباك معدنية تمنع دخول الهوام. رأى سيدات مع أطفالهن، وصبايا يسقين الزهور، وسمع ضحكات سعيدة. إن الطيارين يعيشون على أحسن حال، مثلهم مثل أمريكيّي شركة الانترناشيونال، يا للعنة! إن رؤية كل شيء نظيف ومرتب تثير الحسد في النفس. بل إن لديهم مسبحهم الخاص، هناك وراء البيوت. لم يره ليتوما قط، لكنه تخيله. تخيله يغص بسيدات وفتيات بملابس السباحة، مستلقيات تحت الشمس أو مبتلات بالماء. وإلى اليسار كانت تقوم الأقسام الإدارية، والعنابر، والمكاتب. وفي أقصى الجهة المقابلة يوجد مدرج الطائرات. وقد كانت هناك عدة طائرات تشكل مثلثاً. وفكر: «إنهم يعيشون حياة مترفة». مثل أمريكيّي الانترناشيونال، فهؤلاء يعيشون وراء جدرانهم وأسوارهم كما في الأفلام. ويستطيع الأمريكيون والطيارون أن ينظروا إلى وجوه بعضهم البعض فوق رؤوس أهالي تالارا، الذين يُشوون بالحر هناك في الأسفل، في القرية المحصورة على ضفاف البحر الواسع والمشحم. فمن القاعدة، وبالتحليق فوق تالارا، يلمحون رابية صخرية، وراء

Twitter: @ketab_n

أسوار محمية بحراس مسلحين ليلاً ونهاراً، حيث بيوت المهندسين والفنيين وكبار موظفي الانترناشيونال. ولهؤلاء أيضاً مسبحهم المزود بألواح للوثب وبكل شيء، ويقال في القرية إن الأمريكيات يسبحن هناك وهن شبه عاريات.

أخيراً، وبعد انتظار طويل، سمح لهما الكولونيل ميندرياو بالدخول إلى مكتبه. وبينما هما يتوجهان نحو المكاتب، بين ضباط وطيارين، خطر لليتوما: «إن بعض هؤلاء يعرفون ما الذي حدث. اللعنة!».

– ادخلا. ـ قال لهما الكولونيل من وراء مكتبه.

ضرب كل منهما كعبيه ببعضهما وهما عند العتبة، ثم تقدما حتى وسط الغرفة. كان هناك على الطاولة علم صغير للبيرو، وتقويم، ومفكرة، وملفات، وأقلام، وعدة صور للكولونيل ميندرياو مع ابنته وصور أخرى لها وحدها. إنها صبية ذات وجه طويل ووقح وشديد الصرامة. كل شيء كان مرتباً بهوس، كما هي الخزائن، والشهادات، والخريطة الكبيرة للبيرو التي تشكل خلفية لشبح قائد قاعدة تالارا الجوية. كان الكولونيل ميندرياو رجلاً قصيراً، مربوعاً، وفي شعره فتحتان تبدأان من الصدغين وتتقدمان حتى منتصف الرأس، وله شارب صغير يتخلله الشيب، مشذب بدقة. وهو يعطي انطباعاً بالترتيب كما هو مكتبه. كان يتفحصهما بعينين رماديتين جامدتين، دون أية بادرة ترحيب.

دمدم بتمدن يتعارض مع ملامحه الجليدية:

– بماذا يمكنني أن أخدمكما؟

ورد الملازم باحترام شديد:

Twitter: @ketab_n

– لقد أتينا ثانية من أجل مقتل بالومينو موليرو. أتينا طالبين تعاونك يا سيدي الكولونيل.

قاطعه الكولونيل ميندرياو، وفي صوته بقية من سخرية:

– ألم أتعاون في المرة الماضية؟ ألم تكونا في هذا المكتب بالذات منذ ثلاثة أيام؟ إذا كنتَ قد أضعت المذكرة التي أعطيتك إياها، فإنني احتفظ بصورة عنها.

فتح بسرعة ملفاً كان أمامه، وأخرج منه ورقة وقرأ بصوت خافت:

«موليرو سانتشيث، بالومينو. مولود في بيورا يوم 13 شباط (فبراير) 1936، ابن شرعي لدونيا أسونتا سانتشيث والمرحوم دون تيوفيلو موليرو. أنهى دراسته الابتدائية كاملة، ودراسته الثانوية حتى الثالث المتوسط في مدرسة سان ميغيل الوطنية في بيورا. مسجل في دورة 1953. بدأ الخدمة في قاعدة تالارا يوم 15 كانون الثاني (يناير) 1954، في الوحدة الثالثة، حيث تلقى تحت قيادة الملازم أدولفو كابرياتا التدريب إلى جانب المجندين الآخرين الذين بدؤوا خدمتهم. اختفى من القاعدة ليلة 23 ـ 24 آذار (مارس)، ولم يلتحق بوحدته بعد قضائه يوم إجازة. أُعلن فارّاً من الخدمة وأُبلغت السلطات المختصة بذلك».

تنحنح الكولونيل ونظر إلى الملازم سيلفا:

– أتريد نسخة منه؟

وفكر ليتوما: «لماذا تكرهنا؟ ولماذا أنت مستبد إلى هذا الحد يا ابن الزانية؟».

ابتسم الملازم سيلفا:

– لا داعي لها يا سيدي. فأنا لم أفقد المذكرة.

قطب الكولونيل حاجبيه وقال بفقدان صبر:

Twitter: @ketab_n

– إذن؟ بماذا تريدني أن أتعاون؟ المذكرة تقول كل ما نعرفه عن بالومينو موليرو. أنا شخصياً قمت بالتحقيق مع ضباط وطياري وتلاميذ وحدته. لم يره أحد منهم، ولا أدري من يمكن أن يكون قد قتله ولا لماذا. لقد تلقى رؤسائي تقريراً مفصلاً وهم راضون عن ذلك. أما أنتم فلستم كذلك كما أرى. حسن، هذه مشكلتك. الذين في القاعدة نظيفون من غبار وقش هذه القضية ولا يوجد أي شيء آخر للتقصي عنه هنا داخل القاعدة. لقد كان شخصاً منطوياً، لا يجتمع مع أحد، ولا يبوح بأسراره لأحد. وكما أرى فإنه لم يكن له أصدقاء مثلما لم يكن له أعداء في القاعدة. وهو ضعيف بعض الشيء على تحمل التدريب، حسب التقارير. وربما يكون قد فرّ لهذا السبب. ابحثوا في الخارج، تقصوا عمن كان يعرفه في القرية، مع من كان منذ فرّ إلى أن قتلوه. إنك تضيع وقتك هنا أيها الملازم. وأنا لا أستطيع أن أضيع وقتي.

أتخيف رئيسه نبرة الكولونيل ميندرياو الصارمة؟ أتجعله ينسحب؟ ولكن ليتوما رأى أن رئيسه لم يتحرك.

– ما كنا لنأتي لإزعاجكم يا سيدي الكولونيل لو لم تكن لدينا الأسباب ـ تابع الملازم كلامه وهو في وضع مستقر، وكان يتكلم بهدوء، ودون استعجال.

رعشت العينان الرماديتان رعشة واحدة، وبدت على الوجه ابتسامة متوعدة:

– كان يجب البدء من هنا إذن.

– لقد قام الحارس ليتوما ببعض التحريات في بيورا يا سيدي الكولونيل.

Twitter: @ketab_n

خُيل لليتوما بأن قائد القاعدة قد ابتسم. وشعر بقلق متزايد وبدا له أنه لن يستطيع أبداً تقديم تقرير جيد لشخص عدائي كهذا، ولكنه تحدث وهو كالمخنوق. قال إنه علم في بيورا بأن بالومينو موليرو قد تقدم إلى الخدمة دون أن يكون مضطراً لعمل ذلك، لأن خروجه من المدينة، كما قال لأمه، هو مسألة حياة أو موت. توقف عن الكلام قليلاً. أيسمعه؟ إن الكولونيل ينظر متفحصاً، ما بين الاستياء والرفق، إلى صورة تبدو فيها ابنته محاطة بكثبان رملية وأشجار خروب. ثم رآه أخيراً يلتفت إليه:

– ما الذي يعنيه بمسالة الحياة أو الموت هذه؟

فتدخل الملازم:

– فكرنا بأنه قد يكون فسَّر ذلك هنا، حين تقدم للتطوع. وربما يكون قد أوضح لماذا كان عليه أن يغادر بيورا بتلك السرعة.

أيتظاهر رئيسه بالبلاهة؟ أم أنه مرتبك مثله لأسلوب الكولونيل في معاملتهما؟

مرّ قائد القاعدة بعينيه على وجه الضابط وكأنه يحصي ما فيه من خطوط. وكادت وجنتا الملازم سيلفا تتوقدان لهذه النظرة. ولكنه لم يبد أي انفعال، وانتظر، دون أية تعابير، أن يتكرم الكولونيل بالتحدث إليه.

– ألم يخطر لك بأننا لو كنا نعرف شيئاً كهذا لضمناه في المذكرة؟ ـ قال ذلك بتمهل متلذذ، وكأن محدثيه يجهلان اللغة أو كأنهما من ذوي العاهات ـ. ألم تفكرا بأننا لو كنا نعرف، هنا في القاعدة، بأن بالومينو موليرو يشعر بأنه مهدد أو مطارد من قبل أحد، لكنا أبلغنا الشرطة أو القضاء عن ذلك فوراً؟

Twitter: @ketab_n

كان عليه أن يصمت، لأن طائرة بدأت تهدر قريباً جداً. وتصاعد الضجيج وعلا، وظن ليتوما بأن غشاءي أذنيه سينفجران. ولكنه لم يتجرأ على إغلاق مسمعيه.

– لقد توصل الحارس ليتوما إلى شيء آخر يا سيدي الكولونيل ـ قال الملازم بثبات بعد أن خف ضجيج مراوح الطائرة، وكأنه لم يسمع أسئلة الكولونيل ميندرياو.

فقال هذا وهو يحني رأسه باتجاه ليتوما:

– آه، هكذا؟ أي شيء؟

جلا ليتوما حنجرته قبل أن يجيب. وكانت ملامح الكولونيل الصفراوية قد أخرسته. فقال متلعثماً:

– لقد كان بالومينو موليرو متيماً بالحب. ويبدو أنه...

فسأله الكولونيل:

– ولماذا تتلعثم؟ هل أصابك شيء؟

فهمس ليتوما:

– لم تكن غراميات نظيفة تماماً. ولهذا السبب هرب من بيورا. أي أنه...

جعله الكولونيل، الذي كانت ملامحه تصبح أكثر إبهاماً، يشعر بأنه أحمق ويفقد صوته. فحتى لحظة دخوله المكتب كان يرى أن التكهنات التي توصل إليها في العشية مقنعة، كما أن الملازم كان قد قال له إن تلك التكهنات لها وزنها فعلاً. لكنه الآن، أمام نظرات قائد القاعدة الجوية المرتابة والساخرة، أحس بالتردد، بل وبالخجل من تلك التكهنات.

وتدخل الملازم سيلفا لمساعدته:

Twitter: @ketab_n

– بكلمات أخرى يا سيدي الكولونيل، ربما يكون بالومينو موليرو قد اصطدم في غرامياته بزوج غيور هدده بالقتل، فتطوّع الفتى هنا لهذا السبب.

تفحصهما الكولونيل واحداً بعد الآخر، وهو صامت وساهم. أية حماقة سيطلق الآن؟

وقال أخيراً:

– من هو هذا الزوج الغيور؟

فرد الملازم سيلفا:

– هذا هو ما نود معرفته. فإذا توصلنا إلى ذلك، سنتوصل إلى كومة من الأشياء.

وعاد الكولنيل ميندرياو يتهجى الكلمات، متوقفاً وقفات طويلة:

– وهل تظن بأني مطلع على غراميات مئات المجندين والطيارين الموجودين في القاعدة؟

فاعتذر الملازم:

– ربما حضرتك غير مطلع يا سيدي. ولكن خطر لنا بأنه قد يكون هناك أحد في القاعدة.. أحد زملاء بالومينو موليرو في الوحدة.. أحد المدربين.. أحد ما...

وقاطعه الكولونيل من جديد:

– لا أحد يعرف شيئاً عن حياة بالومينو موليرو الخاصة. لقد تحققتُ من ذلك بنفسي. كان انطوائياً، لا يتكلم مع أحد عن أموره الخاصة. ألا يرد هذا في المذكرة؟

فكر ليتوما بأن الكولونيل لا يهتم قلامة ظفر بمقتل النحيل. فهو لا يبدي الآن، كما في المرة السابقة، أي تأثر بهذه الجريمة. وقد

Twitter: @ketab_n

كان يشير الآن بالذات إلى الجندي وكأنه لا أحد، باحتقار لم يداره جيداً. أيكون ذلك لأنه فر من الخدمة قبل مقتله بثلاثة أو أربعة أيام؟ إضافة إلى خشونته، كان قائد القاعدة معروفاً باستقامته الفظيعة، وهوسه بالأنظمة. وبما أن النحيل، الذي ملّ بكل تأكيد من الانضباط والحبس قد فرّ من الخدمة، فإن الكولونيل يرى فيه شخصاً لا وجود له. بل إنه يفكر بأنه كهارب من الخدمة، يستحق ما لحق به.

وسمع الملازم سيلفا يقول:

– هناك شكوك يا سيدي الكولونيل بأن بالومينو موليرو كان يحب واحدة ممن يعشن في قاعدة بيورا الجوية.

ورأى في الوقت نفسه أن وجنتي الكولونيل الشاحبتين والحليقتين بدقة، قد احمرتا، وأن ملامح وجهه قد اختلّت والتهبت. ولكنه لم يقل ما كان يود قوله لأن الباب فُتح فجأة، ورأى ليتوما عند حافته الفتاة التي في الصُّور. كانت أنيقة.. أكثر أناقة مما هي عليه في الصور، ذات شعر قصير مجعد، وأنف أفطس ومترفع. وكانت ترتدي بلوزة بيضاء، وتنورة زرقاء، وحذاء رياضياً، وتبدو مستاءة مثل أبيها.

قالت دون أن تدخل إلى المكتب، بل ودون أن تتوجه بكلمة استئذان من الملازم وليتوما:

– إنني ذاهبة. هل يوصلني السائق أم أذهب على الدراجة؟

كانت طريقتها في قول الأشياء تنم عن استياء مكبوح، مثل الكولونيل وهو يتكلم. وفكر ليتوما: «من هذا الجذع ذاك الغصن».

رقّ قائد القاعدة في الحال:

Twitter: @ketab_n

– إلى أين يا بنيتي؟

ففكر ليتوما: «لم يكتف بعدم توبيخها لمقاطعتهم بتلك الطريقة، ولعدم إلقائها التحية، وللتحدث إليه بكل ذلك الجفاء فقط، بل إنه يستخدم معها صوت حمامة هادلة».

فردت الصبية بفظاظة:

– لقد أخبرتك في الصباح. سأذهب إلى مسبح الأمريكيين، لأن المسبح هنا لن يمتلئ بالماء حتى يوم الاثنين، هل نسيت؟ هل يوصلني السائق أم أذهب على الدراجة؟

فثغا الكولونيل:

– فليوصلك السائق يا أليسيا. ولكن ليرجع سريعاً، فأنا بحاجة إليه. وأخبريه في أي ساعة عليه أن يعود لإحضارك.

أغلقت الفتاة الباب صافقة إياه واختفت دون كلمة وداع. ففكر ليتوما: «إن ابنتك تنتقم لنا».

– بمعنى أنه... ـ بدأ الملازم الكلام، لكن الكولونيل ميندياو منعه من المتابعة.

– هذا الذي قلته ما هو إلا هراء. ـ قال الكولونيل بحزم، مستعيداً تورد وجنتيه.

– المعذرة يا سيدي الكولونيل؟

التفت قائد القاعدة إلى ليتوما وأمعن النظر فيه وكأنه حشرة:

– ما هي الأدلة؟ الشهود؟ من أين خرجت لنا بأنه كانت لبالومينو موليرو غراميات مع سيدة في قاعدة بيورا الجوية؟

فتلعثم الحارس مرتعباً:

– لا توجد لدي أدلة يا سيدي الكولونيل. لقد توصلت إلى أنه

Twitter: @ketab_n

كان يذهب إلى القاعدة سرا ويعزف السرينادات.

فتهجى الكولونيل:

– إلى قاعدة بيورا الجوية؟ أتعرف من يعيش هناك؟ عائلات الضباط. ليست عائلات جنود الطيران ولا عائلات التلاميذ، وإنما أمهات وزوجات وشقيقات وبنات الضباط فقط. أتلمح إلى أنه كانت لذلك الطيار غراميات خيانة زوجية مع زوجة أحد الضباط؟

عنصري خرائي. هذا هو: إنه عنصري خرائي.

– قد تكون غرامياته مع إحدى الخادمات ـ سمع ليتوما الملازم سيلفا يقول ذلك. وقد شكره من أعماق روحه، لأنه كان يحس بأنه محاصر وعاجز عن الكلام أمام احتدام الطيار البارد ـ . مع إحدى الطاهيات أو المربيات في القاعدة. نحن لا نلمح إلى شيء، ونحاول فقط الكشف عن هذه الجريمة يا سيدي الكولونيل. هذا واجبنا. لقد أثار مقتل هذا الفتى الاشمئزاز في تالارا بأسرها. هنالك تقولات، يقولون إن الحرس الأهلي لا يفعل شيئاً، لأن أسماكاً كبيرة متورطة في القضية. إننا تائهون بعض الشيء، ولهذا فإننا نسبر أية قرينة نجدها. وليس هذا لخلق سوء تفاهم يا سيدي الكولونيل.

وافق قائد القاعدة. ولاحظ ليتوما الجهد الذي يبذله ليخمد مزاجه المعكر.

قال الكولونيل وهو لا يكاد يفتح فمه:

– لست أدري إن كنت تعلم بأنني كنت قائد قاعدة بيورا الجوية إلى ما قبل ثلاثة شهور. لقد خدمت هناك لمدة سنتين. أعرف حياة تلك القاعدة وأسرارها، لأنها كانت بيتي. والحديث عن وجود غراميات غير شريفة لجندي مع زوجة أحد ضباطي هو

Twitter: @ketab_n

شيء لن أسمح لأحد بأن يقوله في حضوري، إلا إذا كان قادراً على إثبات ذلك.

وتجرأ ليتوما على التمتمة:

– لم أقل إنها زوجة أحد الضباط. قد تكون خادمة، كما قال الملازم. ألا توجد خادمات متزوجات في القاعدة؟ لقد كان يذهب إليها خفية ليعزف السرينادات.. وعلى هذا لدينا إثباتات يا سيدي الكولونيل.

كانت جبهة الكولونيل تلمع بعرق نضحته منذ اقتحام ابنته المفاجئ للمكتب:

– حسن، اعثرا على هذه الخادمة، واستجوبا زوجها عن التهديدات المزعومة الموجهة إلى موليرو. وإذا ما اعترف، أحضراه إلي. ولا تعودا إلى هنا من أجل هذه القضية، إلا إذا كان لديكما شيء محدد تطلبانه مني.

نهض واقفاً بسرعة، معلناً بذلك عن انتهاء المقابلة. ولكن ليتوما لاحظ أن الملازم لم يحيي ولم يطلب الإذن بالانصراف. بل قال دون تردد:

– لدينا شيء محدد نطلبه منك يا سيدي الكولونيل. نريد استجواب زملاء بالومينو موليرو في الوحدة.

ومن الاحمرار، انتقل وجه قائد قاعدة تالارا الجوية إلى الشحوب ثانية. وأحاطت بعينيه دائرتان بنفسجيتان. وفكر ليتوما: «إنه مجنون فضلاً عن كونه ابن عاهرة. لماذا يتحول هكذا؟ لماذا يصاب بهذا الحنق الداخلي؟».

– سأشرح الأمر ثانية، حيث أنك، كما أرى، لم تفهمه في المرة

Twitter: @ketab_n

السابقة ـ كان الكولونيل يسحب كل كلمة بتثاقل وكأنها تزن عدة كيلوغرامات ـ . إن للمؤسسات العسكرية قوانينها، ولها محاكمها التي تحاكم عناصرها وتصدر الأحكام بحقهم. ألم يعلموك ذلك في مدرسة الحرس الأهلي؟ لا بأس، سأعلمك إياه الآن إذن. عندما تقع مشكلة من النوع الإجرامي، فإن المؤسسات العسكرية هي التي تتولى التحقيق. وبالومينو موليرو مات في ظروف غامضة، خارج القاعدة، وهو في حالة فرار من الخدمة. وقد رفعتُ التقرير اللازم إلى القيادة. فإذا ارتأت القيادة أن هناك ما يستدعي إعادة التحقيق، فستأمر بإجراء تحقيق جديد، من خلال أجهزتها الخاصة، أو تنقل الملف بكامله إلى السلطة القضائية. ولكن طالما لم يأت أمر من هذا النوع، من وزارة الطيران ومن القيادة العليا للقوات المسلحة، فلن أسمح لأي حارس أهلي بخرق القوانين العسكرية في قاعدة تحت أمرتي. هل هذا واضح؟

فقال الملازم:

– تمام الوضوح يا سيدي الكولونيل.

أشار الكولونيل ميندرياو إلى الباب إشارة حازمة:

– تستطيعان الانصراف إذن.

ورأى ليتوما هذه المرة الملازم يضرب كعبيه ويطلب الإذن بالانصراف. ففعل مثله وخرجا. وفي الخارج، اعتمرا قبعتيهما. ورغم أن الشمس كانت تلفح بشدة أكثر مما كانت عليه عند مجيئهما، والجو كان اكثر عسفاً مما هو عليه في المكتب، فقد أحس ليتوما بأن وجوده في الهواء الطلق منعش ومحرر. تنفس بعمق. اللعنة، إن ذلك أشبه بالخروج من السجن. اجتازا باحات القاعدة باتجاه موقع

Twitter: @ketab_n

الحراسة وهما صامتان. أيشعر الملازم سيلفا بالمذلة والمهانة التي يشعر بها هو للطريقة التي استقبلهما بها قائد القاعدة؟

عند موقع الحراسة كان ينتظرهما عائق آخر. فدون خيرونيمو قد انصرف. ولم يكن أمامهما مفر من العودة إلى القرية سيراً على الأقدام. ساعة من المسير على الأقل، سيتعرقان خلالها أغزر العرق وسيبتلعان الغبار.

انطلقا يسيران في منتصف الطريق، وهما صامتان. وفكر ليتوما: «سأنام بعد الغداء قيلولة لثلاث ساعات». كان يتمتع بقدرة غير محدودة على النوم، ساعة يشاء وفي أي وضع كان، وليس هناك ما يشفيه من هذه الحالات المعنوية مثل إغفاءة جيدة. كان الطريق يتلوى ببطء، منحدراً نحو تالارا في أرض ناعمة التراب، لا وجود فيها لنبتة خضراء واحدة، وسط أحجار وصخور من مختلف الأشكال والأحجام.

كانت القرية عبارة عن نقطة قاتمة ومعدنية، هناك في الأسفل، إلى جانب بحر أخضر رصاصي بلا أمواج. وبالكاد كان يمكن تمييز حافات البيوت وأعمدة السياج الشائك تحت وهج الشمس القوي.

– يا لهول اللحظة التي جعلنا نمر بها، أليس كذلك يا سيدي الملازم؟ ـ قال وهو يمسح جبهته بمنديل ـ . لم أعرف في حياتي شخصاً بهذه الصلافة. أتظنه يكره الحرس الأهلي لمجرد العنصرية أم أن لديه سبباً خاصاً؟ أم تراه يعامل الجميع بهذه الصفاقة؟ أقسم لك بأن أحداً لم يجعلني أبتلع لعاباً مثل هذا الأصلع.

فقال الملازم وهو يمسح بقميصه الخاتم الذهبي ذا الفص الأحمر:

– اللعنة يا ليتوما. لقد كان اللقاء مع ميندرياو رائعاً بالنسبة لي.

Twitter: @ketab_n

– أتسخر مني يا ملازمي؟ إنه لأمر طيب أن تكون لديك رغبة في المزاح. أما أنا، فقد وصلت روحي إلى قدمي بسبب هذه المقابلة.

ضحك الملازم:

– ما زلت غراً في هذه الصراعات يا ليتوما. عليك أن تتعلم الكثير. لقد كانت المقابلة عظيمة. أؤكد لك أنها كانت مفيدة جداً.

– لم أفهم شيئاً إذن يا سيدي الملازم. أنا رأيت الكولونيل وقد حولنا إلى زبالة على هواه، وعاملنا بأسوأ مما يعامل به خدمه. وهل وافق على ما ذهبنا لنطلبه منه؟

وعاد الملازم سيلفا إلى إطلاق قهقهة:

– هذا هو الظاهر فقط يا ليتوما. أما بالنسبة لي فإن الكولونيل قد تكلم مثل ببغاء مخمورة.

وضحك مجدداً وهو فاغر فاه، ثم فرقع أصابعه، ضاغطاً إياها.

– في البدء كنتُ أظن أنه لا يعرف شيئاً، وانه ينغص حياتنا بحكاية القوانين هذه، وبالحساسية العسكرية ـ أوضح الملازم سيلفا ـ . أما الآن فأنا متأكد من أنه يعرف الكثير، وربما يعرف كل ما حدث.

أعاد ليتوما النظر إليه. وأدرك أن عيني الملازم، تحت النظارة السوداء، كانتا مثل وجهه وصوته: سعيدتين وكأنهما في عيد.

سأل:

– أيعرف من هم قتلة بالومينو موليرو؟ أتظن أن الكولونيل يعرفهم؟

قال الملازم موافقاً:

– لا أعرف ما الذي يعرفه، ولكنه يعرف أموراً كثيرة. إنه

Twitter: @ketab_n

يتستر على أحد. لماذا يصبح عصبياً هكذا لو لم يكن كذلك؟ ألم تنتبه إلى ذلك؟ كم أنت ضعيف الملاحظة يا ليتوما، ولا تستحق أن تكون في موقع المسؤولية. هذا الغضب، وهذا الهوس، ما الذي تظن أنه يعنيه؟ إنها ذرائع لإخفاء شعوره بالخوف. إنه كذلك يا ليتوما. لم يكن هو من جعلنا نتغوط واقفين. بل نحن من جعله يقضي وقتاً عصيباً.

ضحك سعيداً بالحياة، وكان ما يزال يضحك حين سمعا بعد لحظة صوت محرك يقترب. كانت شاحنة مطلية بألوان القاعدة الجوية الزرقاء. توقف السائق دوت أن يطلبا منه ذلك. وحياهما من النافذة ضابط صف شاب:

– هل أنتما ذاهبان إلى تالارا؟ اصعدا، سنوصلكما. حضرتك هنا، معي أيها الملازم. وبإمكان الحارس الذهاب إلى الخلف.

في القسم الخلفي كان يوجد طياران، لا بد أنهما ميكانيكيان، فهما ملطخان بالشحم حتى أنفيهما. كانت الشاحنة مليئة بعلب الزيت وعلب الطلاء والفراشي.

قال أحدهما:

– وهل ستكشفان الحلوى أم ستدفنان الجريمة لحماية الأسماك الكبيرة؟

وكان في سؤاله حقد كبير.

فأجاب ليتوما:

– سنكشفها لو أن الكولونيل ميندرياو يساعدنا قليلاً. ولكنه لا يكتفي بعدم مساعدتنا، بل يعاملنا كالكلاب المسعورة كلما أتينا لمقابلته. أهو كذلك في معاملتكم في القاعدة؟

Twitter: @ketab_n

– ليس بالرجل السيئ. إنه مستقيم ويسيّر القاعدة بنظام وكأنها مدفع. والسبب في مزاجه السيئ هو ابنته.

دمدم ليتوما:

– إنها تعامله بطرف قدمها، أليس كذلك؟

فقال الطيار الآخر:

– إنها متعجرفة؛ لأن الكولونيل ميندرياو هو أبوها وأمها في الوقت نفسه. فقد ماتت أمها وهي ما تزال صغيرة. ورباها هو وحده.

توقفت الشاحنة أمام المفوضية. ونزل الملازم وليتوما منها.

ودعهما ضابط الصف الشاب قائلاً:

– إذا لم تكشفا القتلة فسيعتقد الجميع بأنكما تلقيّتما رشوة من الأسماك الكبيرة.

– لا تقلق أيها الفتى، إننا في الطريق الصحيح. – سمع ليتوما الملازم سيلفا يتمتم من بين أسنانه، في حين كانت الشاحنة قد اختفت وسط غبار له لون البيرة.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

وصلت إلى المفوضية، عبر فم إحدى الومسات أخبار الفضائح التي كان يقوم بها ملازم صغير في ماخور تالارا. فقد جاءت «الذئبة البحرية» لتشكو من أن قوّادَها صار يضربها مؤخراً أكثر من المعتاد.

– لم أعد أجد زبائن بسبب الكدمات التي يتركها على جسدي. وهكذا لا آتيه بالمال، فيضربني حينئذ من جديد. اشرح له الأمر أنت أيها الملازم سيلفا. إنني أحاول ذلك، ولكنه لا يريد أن يفهم.

وروت لهما الذئبة البحرية أن الضابط الصغير قد حضر في الليلة الماضية إلى الماخور، وكان وحيداً. وأنه سكر بكؤوس متتالية من خمر البيسكو التي كان يجرعها وكأنها كؤوس ماء. لم يكن يشرب الخمر كمن يريد أن يلهو، وإنما طلباً للسكر السريع. وعندما سكر، فتح بنطاله وبال على الومسات القريبات منه، وعلى الزبائن وعلى القوادين. ثم صعد على الكونتوار وتابع استعراضه إلى أن جاءت شرطة الطيران لحمله. وكان الصيني لياو يُهدئ الناس كي لا يؤذوه بشيء: «ذا ما ضربتموه فستُلحقون الضرر بي وبأنفسكم، لأنهم سيغلقون المحل. فهم الرابحون أبداً».

Twitter: @ketab_n

لم يبد على الملازم سيلفا أنه أولى اهتماماً لرواية الذئبة البحرية.

وفي اليوم التالي، وبينما هما يتناولان الغداء في مطعم دونيا أدريانا، روى أحد الزبائن أنَّ ذلك الطيار قد كرر دعاباته في الليلة الفائتة وزاد عليها، إذ قام هذه المرة بتهشيم زجاجات الشراب، متعللاً بأنه يريد رؤية النجوم الزجاجية تتطاير في الهواء. وكان على شرطة القاعدة الجوية أيضاً أن تأتي لإخراجه من المحل. وفي اليوم الثالث، حضر الصيني لياو بنفسه إلى مركز الحرس الأهلي متباكياً:

– لقد حطم هذه الليلة رقمه القياسي. فقد أنزل سرواله وأراد أن يتغوط في حلقة الرقص. إنه مجنون أيها الملازم. يأتي للاستفزاز فقط، وكأنه يريد أن يضربوه. افعل شيئاً، لأنك إن لم تفعل، فأقسم لك أن أحداً سيجهز عليه. وأنا لا أريد أن يُدخلوني في مشاكل مع القاعدة.

فنصحه الملازم سيلفا:

– اذهب وأخبر الكولونيل ميندرياو أيها الصيني. فهذه المسألة تخصه.

أجابه الصيني:

– أنا لن أذهب إلى الكولونيل لأي سبب في الدنيا. إنني أخاف ميندرياو خوفاً لعيناً، يقولون إنه صارم جداً.

– لقد تخوزقت إذن أيها الصيني. فأنا لا أملك أية سلطة على الطيارين. لو أنه كان مدنياً لتدخلت بكل سرور.

نظر الصيني لياو إلى ليتوما والملازم مفجوعاً:

– ألن تفعلا شيئاً؟

Twitter: @ketab_n

فودعه الضابط قائلاً:

– سنصلي من أجلك. وداعاً أيها الصيني، تحياتي إلى الحريم.

ولكن ما أن انصرف لياو، حتى التفت الملازم سيلفا إلى ليتوما الذي كان يضرب بإصبع واحدة على آلة كاتبة قديمة من ماركة ريمنغتون، ليطبع التقرير اليومي، وعلق قائلاً بصوت دغدغ الحارس:

– إن قضية الطيار هذه محاطة بالغموض. ألا ترى ذلك يا ليتوما؟

– أجل يا سيدي الملازم ـ قال الحارس موافقاً. ثم صمت قليلاً قبل أن يسأل: ـ ولماذا هي محاطة بالغموض؟

– لا أحد يذهب للعربدة على هذا النحو في الحانة التي يرتادها أخطر الناس في تالارا، لمجرد إظهار ظرافته. ولأربعة أيام متتالية. إنني أشم شيئاً غريباً في الأمر. ألا تشم ذلك أنت؟

فأكد ليتوما:

– بلى ياسيدي الملازم ـ ولم يكن قد فهم ما ألمح إليه رئيسه، لكنه كان متلهفاً للسماع.. كان آذاناً مصغية، فأضاف: – أي أن حضرتك تعتقد بأنه؟

– بأنه علينا، أنا وأنت، أن نتناول كأساً من البيرة في محل لياو يا ليتوما. على حساب المحل طبعاً.

لقد تنقل ماخور الصيني لياو عبر أرجاء تالارا، والكاهن يلاحقه. فما أن يكتشف الأب دومينغو مكانه حتى يطلب من البلدية إغلاقه. وبعد أيام قليلة من الإغلاق، يعود الماخور للانبعاث

Twitter: @ketab_n

في خص أو كوخ، على بعد ثلاثة أو أربعة بيوت من مكانه السابق. وقد كسب الصيني لياو المعركة أخيراً. إنه الآن عند مخرج البلدة، في مخزن من ألواح خشبية مقامة كيفما اتفق. كان محلاً بدائياً وواهناً، بأرضيته الترابية التي تُرش بالماء يومياً كي لا يثور الغبار، وسقفه المؤلف من ألواح توتياء مفلتة، تَصرُّ مع الريح. أما حجرات المومسات، في أقصى المحل، فكانت مليئة بشقوق يتلصص منها الصبية والسكارى على الرجال والنساء المضجعين في الداخل.

ذهب الملازم سيلفا وليتوما إلى الماخور سائرين على مهل، بعد أن شاهدا فيلم رعاة بقر في سينما السيد فرياس التي تعرض الأفلام في الهواء الطلق (كانت الشاشة هي الجدار الشمالي للكنيسة، مما خول الأب دومينغو صلاحية فرض رقابته على الأفلام). كان ليتوما يجرجر جزمته على التراب الناعم ولا يكاد يرفعها. وكان الملازم يدخن.

– قل لي على الأقل ما الذي خطر لك يا سيدي الملازم. لماذا تظن بأن لسفاهات هذا الطيار علاقة بمقتل النحيل؟

نفث الملازم سيلفا سحابة من الدخان:

– لم يخطر لي شيئاً. كل ما في الأمر هو أننا لا نعرف رأسنا من قدمينا في هذه القضية، ولهذا علينا أن نتلمس بأيدينا في كل الاتجاهات عساها تصطدم بشيء ولو مصادفة. فإذا لم يحدث ذلك، فإنها ستكون ذريعة على الأقل لإلقاء نظرة على الماخور ومعاينة البضاعة التي هناك. بالرغم من أنني أعرف أني لن أجد هناك امرأة أحلامي.

Twitter: @ketab_n

ففكر ليتوما: «سيحدثني الآن عن البدينة. يا للهوس».

وتذكر الملازم سيلفا بكآبة:

– أمس ليلاً أريتها إياه. حين خرجتُ للتبول عند الحظيرة، خرجتْ هي حاملة الماء للخنـزيرة. نظرتْ إليّ، فأريتها إياه. أمسكته بكلتا يدي، هكذا. «هذا لك يا ميمتي. فإلى متى ستتركينه جائعاً».

ضحك بعصبية، مثلما يحدث له كلما تحدث عن دونيا أدريانا.

فجاراه ليتوما:

– وماذا فعلتْ هي يا ملازمي؟

كان يعلم أن مجاراته في الحديث عن دونيا أدريانا هو كمداعبة ملمس اللذة فيه.

فتنهد الملازم:

– لقد هربتْ راكضة بالطبع، متصنعة الغضب. لكنها رأته. وأنا متأكد من أنها بقيت تفكر، وربما حلمتْ به. ستقارنه بعضو دون ماتياس الذي لا بد أن يكون ميتاً.. مجرد جلدة. هذا سيلينها يا ليتوما. وستنتهي لحل حزامها لي. ويوم تحدث ذلك سأدعوك إلى سكرة بمشروب فاخر. هذا وعد.

– الحقيقة أنك شديد المثابرة يا ملازمي. وتستحق أن تستجيب لك دونيا أدريانا، ولو كجائزة لك على إصرارك.

كان في الماخور أناس قليلون. وخرج الصيني لياو لاستقبالهما بسعادة:

– كم أنا ممتن لمجيئك أيها الملازم. كنت أعرف أنك لن تتخلى

Twitter: @ketab_n

عني. تفضلا، تفضلا. لماذا تظن أن المحل خاو هكذا؟ بسبب ذلك المجنون، ولا سبب سواه. فالناس يأتون هنا ليلهوا، لا ليُشتموا أو ليُبال عليهم. لقد انتشر الخبر، وليس هناك من يريد الدخول في مشاكل مع طيار. لا حق له في ذلك، أليس كذلك؟

سأله الملازم:

– ألم يحضر بعد؟

فقال الصيني لياو:

– إنه يأتي عادة في حوالي الحادية عشرة. سيأتي، انتظراه.

أجلسهما على طاولة في الركن الأكثر انعزالاً وقدم لهما زجاجتي بيرة. اقتربت منهما عدة مومسات في محاولة لفتح حديث معهما، ولكن الملازم صرفهن. لا يمكنهما الاستجابة لهن، فقد جاءا هذه المرة ليحلا مشكلة رجال. وشكرت الذئبة البحرية ليتوما لأنه هدد قَوَّادها بزجّه في الزنزانة إذا ما استمر بضربها، وقبلت الحارس من أذنه هامسة له: «حين تود النوم معي، فما عليك إلا المجيء وحسب». وقالت لهما إنه لم يضربها منذ ثلاثة أيام.

وصل ملازم الطيران الصغير إلى الماخور عند منتصف الليل تقريباً. وكان ليتوما ورئيسه قد شربا أربع زجاجات بيرة. وقبل أن ينبههما الصيني لياو، عرف ليتوما، الذي كان يتفحص وجوه جميع القادمين الجدد، أنه هو. شاب صغير السن، نحيف، أسمر، شعره حليق على مستوى جلد الرأس تقريباً. كان يرتدي قميص الزي العسكري وبنطاله الكاكي، ولكن دون شارات أو شرائط. دخل وحيداً، دون أن يحيي أحداً، ودون مبالاة برد الفعل الذي أثاره

Twitter: @ketab_n

حضوره ـ وخزات مرافق، نظرات، غمزات، وشوشة ما بين المومسات والزبائن القليلين ـ ومضى مباشرة ليستقر إلى جوار الكونتوار. وقال آمراً: «كأس قصير». وأحس ليتوما بأن قلبه قد تسرع نبضه. لم يرفع عينيه عنه. ورآه يتناول كأس البيسكو في جرعة واحدة ويطلب آخر.

همست له الذئبة البحرية التي كانت تجلس على الطاولة المجاورة برفقة بحار:

– هكذا في كل ليلة. وبعد الكأس الثالثة أو الرابعة يبدأ الاستعراض.

لكنه بدأ هذه الليلة ما بين الكأس الخامسة والسادسة. لقد عدّ ليتوما كؤوس البيسكو التي كرعها. كان يرصده من فوق رؤوس الراقصين على إيقاع موسيقى تصدر عن جهاز راديو يعمل بالبطارية. كان الطيار يسند رأسه براحتيه، ناظراً بثبات إلى الكأس التي بين ذراعيه، وكأنه يحميها. لم يكن يتحرك. وبدا كما لو أنه غارق في تأمل يعزله عن المومسات، وعن القوادين، وعن العالم. ولم يكن يتحرك إلا لرفع الكأس بحركة آلية إلى فمه، ثم لا يلبث أن يعود في الحال ليتحول إلى تمثال جامد. ولكن ليتوما انشغل عن المراقبة ما بين الكأسين الخامسة والسادسة، وحين بحث عنه ثانية، لم يجده عند الكونتوار. فتطلع إلى جميع الأنحاء ووجده في حلبة الرقص. كان يتقدم بتصميم نحو زوج من الراقصين: المومس ذات الشعر الأحمر ورجل قصير يضع ربطة عنق، إنما دون جاكيت، ويتحرك وهو صاح، متعلقاً بها وكأنه مشرف على الغرق.

Twitter: @ketab_n

أمسك به الملازم الصغير من قميصه وأبعده بدفعة واحدة قائلاً له بصوت عال سمعه كل من هم في الماخور:

– عن إذنك: لقد جاء دوري الآن مع الآنسة.

انتفض ذو ربطة العنق وتطلع في جميع الاتجاهات وكأنه يطلب تفسيراً لما يحدث أو نصيحة بما يفعل. ورأى ليتوما الصيني لياو يشير للرجل بأن يبقى هادئاً. وهذا ما اختار الزبون عمله وهو يهز كتفيه. مضى إلى الجدار الذي تقف عنده المومسات، ودعا ذات النمش للرقص، مبدياً استياءه. في هذه الأثناء، كان الملازم الصغير المغتصب، يتقافز ويحرك يديه ويصعر وجهه. دون أن يبدي أدنى قدر من السعادة في تهريجه. أيريد لفت الأنظار إليه فقط؟ لا، إنه يريد الإزعاج أيضاً. فهذا القفز والهز، وهذه الملامح المتبدلة التي يرسمها على وجهه ما هي إلا ذرائع ليضرب بمرفقيه، وبكتفيه، وبإليتيه كل من يقترب منه. وفكر ليتوما: «يا لأمه العاهرة». متى سيتدخلان؟ لكن الملازم سيلفا كان يدخن بهدوء شديد، وينظر إلى الطيار بملامح الانشراح من خلال حلقات الدخان، وكأنه يحتفي بعربدته. يا لصبر الناس! فالراقصون الذين يتلقون ضربات الطيار يبتعدون جانباً، يبتسمون، يهزون أكتافهم ويبدو على وجوههم أنهم يفكرون: «لكل مجنون دنياه، وما علينا إلا الصبر». عندما توقفت الموسيقى، رجع الملازم الصغير إلى الكونتوار وطلب كأساً أخرى من البيسكو.

وسمع رئيسه يقول له:

– هل تعرف من يكون يا ليتوما؟

Twitter: @ketab_n

– لا. وهل تعرفه أنت؟

أومأ الملازم سيلفا بالإيجاب، وقال بنبرة ماكرة:

– إنه عشيق ابنة ميندرياو. مثلما أقول لك. لقد رأيتهما يمسكان بأيدي بعضهما في المهرجان السنوي، يوم عيد الطيران. ورأيتهما في عدد من أيام الآحاد، في القداس.

فدمدم ليتوما:

– سيكون هذا هو السبب الذي جعل الكولونيل يتحمل هذه العربدات. لو أن شخصاً آخر فعل ذلك لزج به دون شك في السجن، دون سؤال أو جواب، لامتهانه سمعة المؤسسة.

فقال رئيسه:

– بمناسبة الحديث عن العربدات، لا تضيع هذه اللقطة يا ليتوما.

كان الملازم الصغير يقف فوق الكونتوار، حاملاً في يده زجاجة بيسكو، وبهيئة من يريد إلقاء خطبة. فتح ذراعيه وصاح: «سِك ودفعة واحدة في صحة العاهرة التي أنجبتكم!». ورفع الزجاجة إلى فمه وشرب جرعة طويلة جعلت معدة ليتوما تلتهب لمجرد التفكير بما سيحدث للمرء بتلقي مثل تلك النار في أحشائه. ولا بد أن معدة الملازم الصغير قد احترقت أيضاً، إذ أنه لوى فمه وانكمش كما لو أنه تلقى ضربة قبضة يمنى. اقترب منه الصيني لياو وهو يعتذر ويبتسم، محاولاً إقناعه بالنزول عن الكونتوار وبعدم اقتراف مزيد من الفضائح. لكن الطيار شتم أمه، وقال له إذا هو لم يدس لسانه في مؤخرته فإنه سيحطم كل الزجاجات التي في المحل.

Twitter: @ketab_n

فابتعد الصيني وعلى محياه تعابير فلسفية، وجاء يتلطى إلى جوار ليتوما والملازم سيلفا:

– ألن تفعلا شيئاً؟

فقرر الملازم:

– فليسكر أكثر.

كان الطيار يتحدى الآن القوادين والزبائن ـ الذين كانوا يتفادون النظر إليه، ويتابعون الرقص والكلام والتدخين وكأنه غير موجود ـ ويطالبهم بأن يتعروا إذا كانوا رجالاً، لماذا يرتدون الملابس؟ كان يومئ إليهم. أتخجلون من أن يرى الناس خصاكم؟ أم أنكم لا تملكون خصى؟ أم أنكم تملكونها صغيرة فتخجلون منها؟ أما هو فكان فخوراً بخصيتيه.

– انظروا وعوا! ـ زمجر. وحل حزامه في لحظة واحدة، ورأى ليتوما البنطال الكاكي ينـزلق، كاشفاً عن ساقين نحيلتين وغزيرتي الشعر. رآه يحرك ساقيه ليخلّص قدميه العالقتين بالبنطال، ولكن، إما لأنه مخمور جداً أو لأنه كان يقوم بهذه الحركات غاضباً، فقد شبك نفسه أكثر، وهوى على وجهه من أعلى الكونتوار إلى حلبة الرقص. وتفتت الزجاجة التي كانت في يده، وارتطم بالأرض مثل كيس بطاطا. انفجرت موجة من الضحك. ونهض الملازم سيلفا واقفاً:

– الآن يا ليتوما.

تبعه الحارس. اجتازا حلبة الرقص، وبقي الملازم الصغير مولياً ظهره والبنطال ملفوف عند كاحليه، وسط دائرة من قطع الزجاج

Twitter: @ketab_n

وشظاياه. كان يشخر فاقداً وعيه. وفكر ليتوما: «لقد ارتطم بالآرض ارتطامة ابن عاهرة». أمسكاه من ذراعيه وأوقفاه. فراح يخبط بيديه ويطلق الشتائم، بنصف لسان. وكان يريّل بغزارة مخمور. رفعا بنطاله، وثبتا حزامه، وأسنداه من إبطيه، كل منهما من جانب، وسحباه حتى المخرج. صفقت العاهرات ومعهن الزبائن سعداء بإخراجه.

سال ليتوما:

– ماذا سنفعل به يا سيدي الملازم؟

كانت الريح تعصف في الخارج، وصفائح الماخور تهتز. وكان عدد النجوم أكثر مما كان عليه من قبل. وبدت أضواء تالارا كذلك وكأنها نجوم نزلت حتى البحر مستغلة حلول الظلام.

قال رئيسه:

– فلنأخذه إلى هذا الشاطئ.

وتلعثم الملازم الصغير:

– أفلتوني أيها الكلاب.

ولكنه بقي هادئاً، ولم يقم بأدنى محاولة للتخلص من ذراعيهما.

فقال له الملازم بحنان:

– الآن سنفلتك يا أخي. اهدأ فقط ولا تغضب.

سحباه نحو خمسين متراً، فوق أرض رملية فيها نباتات عشبية جافة، إلى شاطئ حصوي ورملي. ركناه على الأرض وجلسا إلى جانبيه. كانت الأكواخ المجاورة مظلمة. وكانت الريح تحمل إلى عرض البحر صوت الموسيقى والصخب المنبعث من الماخور. وكان

Twitter: @ketab_n

الجو يعبق برائحة الملح والسمك، وإيقاع أمواج الشاطئ يبعث على النعاس مثل منوّم. أحس ليتوما بالرغبة في التكور على الرمل، وتغطية وجهه بالقبعة ونسيان كل شيء. ولكنه جاء هنا للعمل، يا للعنة. كان قلقاً وفزعاً وهو يفكر بأن هذا الجسد المركون عند قدميه سيكشف لهما أموراً رهيبة.

قال الملازم سيلفا:

– أتشعر بتحسن يا صديقي؟

ورفع الطيارَ إلى أن جعله يجلس وأسنده بجسمه، واضعاً ذراعه على كتفه، وكأنه رفيق روحه، وأضاف:

– أما زلت مخموراً أم أن السكر قد فارقك؟

– ابن أي عاهر أنت وأي عاهرة هي أمك؟ ـ تلعثم الطيار مسنداً رأسه إلى كتف الملازم سيلفا. ولم تكن عدوانية صوته لتتفق بأي حال مع انقياد جسده، الرخو والمعوج، المتكئ على رئيس ليتوما كاتكائه على مسند.

فقال الملازم سيلفا:

– أنا صديقك يا أخي. اشكرني لأني أخرجتك من الماخور. فلو أنك تابعت عرض خصيتيك لقطعوهما لك. وما الذي ستفعله في الحياة وأنت مخصي، فكر بالأمر فقط.

صمت عن الكلام لأن الطيار أصيب بنوبة تشنجات في معدته. وبالرغم من أنه لم يتوصل إلى التقيؤ، إلا أن الملازم أزاح له رأسه تحسباً، وأماله نحو الأرض.

وتلعثم وهو ما يزال غاضباً، بعد أن زايله التشنج:

Twitter: @ketab_n

– لا بد أنك مخنث. هل أتيت بي إلى هنا لأقدم لك معروفاً بدس عضوي فيك؟

ضحك الملازم سيلفا:

– لا يا أخي. لقد جئت بك لتقدم لي معروفاً. ولكن ليس هذا.

وفكر ليتوما بتقدير: «لديه أسلوبه في سحب الأسرار من الناس».

– وأي معروف تريدني أن أقدمه لك يا ابن العاهرة؟ ـ تجشأ الطيار وريّل حانقاً، وعاد يستند ثانية إلى كتف الملازم سيلفا بأقصى قدر من الثقة، مثل هر يبحث عن دفء هرة.

– أريدك أن تروي لي ما الذي حدث لبالومينو موليرو يا أخي.

– همس الضابط بذلك وارتعش ليتوما.

لم يُبدِ الطيار أية ردة فعل، لم يتحرك، ولم يتكلم، وكان يبدو – فكر ليتوما ـ وكأنه فقد القدرة على التنفس. وبقي متحجراً على تلك الحال لوقت لا بأس به. كان الحارس يراقب رئيسه. هل سيعيد عليه السؤال؟ هل فهم أم أنه يتظاهر بعدم الفهم؟

– فلترو لك العاهرة أمك ما حدث لبالومينو موليرو ـ نشج الطيار أخيراً بصوت خافت جداً، مما جعل ليتوما يمط عنقه ليسمع. وكان ما يزال مستنداً إلى الملازم سيلفا ويبدو عليه أنه يرتجف.

فرد عليه رئيس ليتوما بالصوت البشوش نفسه:

– أمي المسكينة لا تعرف من هو بالومينو موليرو. أما أنت فتعرف. هيا يا أخي، قل لي ما الذي حدث.

– أنا لا أعرف شيئاً عن بالومينو موليرو! ـ صرخ الطيار، وقفز

Twitter: @ketab_n

ليتوما على الرمل ـ . لا أعرف شيئاً! لا شيء، لا شيء!

كان صوته مكسوراً، وكان يرتجف من رأسه حتى قدميه.

فواساه الملازم سيلفا بحنان كبير:

– أنت تعرف يا أخي. ولهذا تأتي لتسكر في الماخور كل يوم. ولهذا تمضي أشبه بمجنون. ولهذا تستفز قوادي المومسات وكأنك كاره حياتك.

فنبح الطيار ثانية:

– لا أعرف شيئاً! لا أعرف شيئاً!

وتابع الملازم وكأنه يهدل له:

– إروِ لي ما حدث للنحيل وستشعر بتحسن. أقسم لك يا أخي، فأنا أعرف شيئاً من علم النفس. دعني أكون كاهن اعترافك. وثق أن هذا سيرحيك.

كان ليتوما يتعرق، ويحس بقميصه ملتصقاً بظهره. ولكن الجو لم يكن حاراً، إنما أقرب إلى البرودة. كان الهواء يحرك بعض الأمواج التي تتكسر على بعد أمتار قليلة من الشاطئ، بخيبة أمل واهنة. وفكر: «لماذا أنت خائف يا ليتوما؟ اهدأ، اهدأ». كانت صورة النحيل عالقة في رأسه، وكان يفكر: «الآن سأعرف من الذي قتله».

– كن شجاعاً وأخبرني. ـ كان الملازم سيلفا يستحدثه على الكلام:– ستشعر بتحسن. ولا تبك.

ذلك أن الملازم الصغير كان قد بدأ بالانتحاب مثل طفل رضيع، ووجهه ملتصق بكتف الملازم سيلفا.

Twitter: @ketab_n

وتلعثم وهو يختنق بنوبة جديدة من الغثيان:

– لست أبكي للسبب الذي تظنه أنت. إنني أسكر لأن ابن العاهرة هذا طعنني بخنجر. إنه لا يسمح لي برؤية أنثاي! منعني من رؤيتها. وهي لا تريد رؤيتي كذلك، يا للعنة. هل تظن بأن له الحق بعمل شيء ابن عاهرة كهذا؟

مسح الملازم سيلفا بكفه على ظهر الطيار:

– ليس له الحق طبعاً يا أخي. ابن العاهرة الذي منعك من رؤية أنثاك هو ميندرياو، أليس كذلك؟

رفع الملازم الصغير رأسه الآن عن كتف رئيس ليتوما. وعلى ضوء القمر اللبني، رأى الحارس وجهه الملطخ بالمخاط واللعاب. كانت حدقتا عينيه واسعتين ولامعتين، وثملتين بالقلق. وكان يحرك فمه دون أن ينطق بكلمة.

وسأله الملازم سيلفا بالنبرة العادية نفسها التي كان سيتوجه بها إليه لو أنه سأله إن كانت السماء تمطر:

– ولماذا منعك الكولونيل من رؤية ابنته يا أخي. ماذا فعلت بها؟ هل حبّلتها؟

وريّل الطيار وهو يقول:

– هس، هس، اللعنة. لا تذكر اسمه، اللعنة! أتريد خوزقتي؟

فطمأنه الملازم:

– لا، طبعاً لا يا أخي. ما أريده هو مساعدتك. إنني قلق لرؤيتك مخوزقاً على هذه الحال، تسعى للسكر واقتراف الفضائح. إنك تدمر مستقبلك، ألا تدرك هذا؟ أوكي، لن نذكر اسمه بعد الآن، كلمة شرف.

Twitter: @ketab_n

فنشج الملازم الصغير وهو ينهار من جديد على كتف الملازم سيلفا:

– كنا سنتزوج عند صدور ترقيتي في العام المقبل. وقد جعلني ابن العاهرة أصدق أنه موافق وأننا سنتبادل الخواتم في يوم العيد الوطني. لقد خوزقني، أترى؟ هل من المسموح أن يكون هناك في الحياة خائناً وأن يكون وغداً وسافلاً إلى هذا الحد؟

كان قد تحرك وأخذ ينظر الآن إلى ليتوما. فدمدم الحارس مرتبكاً:

– لا يا سيدي الملازم.

فقال الطيار وهو يريّل ويهوي من جديد على الملازم سيلفا:

– ومن هو هذا القواد؟ ما الذي يفعله هنا؟ من أين خرج ابن العاهرة الآخر هذا؟

فطمأنه الملازم سيلفا:

– لا أحد، إنه مساعدي، وهو شخص موثوق. لا تقلق بشأنه، ولا بشأن الكولونيل ميندرياو كذلك.

– هس، هس، هس، اللعنة، لا تذكر اسمه.

وربت الملازم بيده على ظهر الطيار:

– معك حق، لقد نسيت. ولكن جميع الآباء يتألمون لزواج بناتهم. لا يريدون فقدانهن. أتح له بعض الوقت، وسيرق أخيراً وتتزوج من أنثاك. أتريد نصيحتي؟ إملأها! وحين يراها حبلى، لن يجد العجوز مفراً من الموافقة على الزواج. والآن، حدثني عن قضية بالومينو موليرو.

Twitter: @ketab_n

وفكر ليتوما: «هذا الرجل عبقري».

نشج الطيار، وداهمته نوبة غثيان أخرى من تلك التي يختلط بها فؤاق السكر، وفكر ليتوما بأن قميص رئيسه قد تلوث بالقيء دون شك.

– إنه لا يرقّ أبداً لأنه ليس بشراً. لا روح له، أترى؟ إنه مسخ، لعب معي كقواد، أترى؟ هل فهمت الآن لماذا أنا ساخط؟ هل فهمت لماذا لم يبق أمامي سوى السكر حتى الثمالة كل ليلة؟

وقال الملازم سيلفا:

– أنا أفهم ذلك بالطبع يا أخي. إنك ترتعش ويحزّ في نفسك أن يمنعوك من رؤية أنثاك. ولكن من الذي يخطر له أن يضاجع ابنة ميندرياو، عفواً، أعنى هذا الطاغية. هيا يا أخي، حدثني عن قضية بالومينو موليرو.

– أنت تظن نفسك ذكياً جداً، أليس كذلك؟ ـ تلعثم الطيار وهو يرفع رأسه. كان يبدو وكأن السكر قد فارقه. وسارع ليتوما إلى الإمساك به، إذ بدا له أنه سيعتدي على رئيسه. ولكن لا، لقد كان مخموراً جداً، وغير قادر على النهوض، فانهار مرة أخرى على الملازم سيلفا. وواساه هذا قائلاً:

– هيا يا أخي. ستشعر بالراحة، ستسلو مشكلتك. ستنسى أنثاك للحظة. هل قتلوه لأنه تحرش بزوجة أحد الضباط؟ أكان هذا هو السبب؟

فزمجر الطيار مرتعباً:

– لن أقول لكَ أية لعنة عن بالومينو موليرو. وإن كنت تريد

Twitter: @ketab_n

الحصول على أي شيء، فاقتلني قبل ذلك.

فأنبه الملازم برقة:

– يا لك من ناكر للجميل. لقد أخرجتك من الماخور، حيث كانوا سيقطعون خصيتيك. وجئت بك إلى هنا ليفارقك السكر وترجع إلى القاعدة سليماً ولا يعاقبونك هناك. وها أنذا أجعل من نفسي منديلاً لك، ووسادة وممسحة دموع. انظر فقط كيف فعلت بي بريالتك. بينما أنت لا تريد أن تخبرني لماذا قتلوا بالومينو موليرو. هل تخاف شيئاً؟

أصاب ليتوما القنوط «لن يحصل منه على شيء». لقد أضاعا الوقت سدى، والأسوأ من ذلك أنه بنى أوهاماً. وهذا السكير لن يخرجهما من المتاهة.

أنَّ الطيار من بين أسنانه:

– وهي كذلك ليست سوى براز. ـ أصيب بنوبة تشنج في معدته، ثم أضاف بضيق: ـ ورغم كل ما فعلته بي، فإنني أحبها. من يفهم هذا! أجل، اللعنة. إنها هنا، في قلبي. يا للنكبة.

سأله الملازم سيلفا:

– ولماذا تقول إن أنثاك هي براز أيضاً يا أخي. عليها أن تطيع أباها، أليس كذلك؟ أم أنها لم تعد تحبك؟ هل طردتك؟

– هي لا تعرف ما تريد، إنها صوت سيدها، كلب الأسطوانة، هكذا هي. إنها تفعل وتقول ما يريده المسخ الرهيب. كان هو من طردني، إنما بفمها هي.

حاول ليتوما أن يتذكر الفتاة، مثلما رآها أثناء ظهورها القصير

Twitter: @ketab_n

في مكتب أبيها. كان الحوار الذي دار بينهما حاضراً في ذهنه، ولكنه لم يستطع أن يتذكر إن كانت جميلة. فهي تتراءى له شبحاً ضئيلاً، ولا بد أن تكون ذات شخصية قوية بسبب الطريقة التي تكلمت بها، وهي متغطرسة بكل تأكيد. إنها وجه ينظر إلى الجميع من فوق عرش، أليست كذلك؟ لا بد أنها مسحت الأرض بالطيار المسكين... يا للحال التي تركته فيها.

وكرر الكلازم سيلفا مرة أخرى:

– ارو لي قضية بالومينو موليرو يا أخي. شيئاً منها على الأقل. قل لي على الأقل إن كانوا قد قتلوه لأنه تورط مع زوجة أحد الضباط هناك في بيورا. هيا، قل ولو هذا فقط.

تلعثم الطيار:

– قد أكون سكراناً ولكنني لست نذلاً، ولن أسمح لك بأن تعاملني كصبيك.

توقف قليلاً عن الكلام، ثم أضاف بمرارة:

– ولكنك إذا أردت أن تعرف شيئاً، فإنني أقول لك إنه بحث بنفسه عما حل به.

فهمس الملازم:

– تعني بالومينو موليرو؟

– قل ابن العاهرة بالومينو موليرو، أفضل.

فدمدم الملازم وهو يمسح على ظهره:

– حسن، ابن العاهرة بالومينو موليرو، إن كنتَ تفضل هذا، وكيف بحث عما حلّ به؟

Twitter: @ketab_n

تنحنح الملازم الصغير بغضب:

– لأنه نقر عالياً جداً.. لأنه دخل قنّاً ليس له. وهذه أمور يُدفع ثمنها. وقد دفع الثمن، وأحسن صنعاً بدفع الثمن.

اقشعر جلد ليتوما. فهذا الرجل يعرف. إنه يعرف من هم قتلة النحيل ولماذا قتلوه.

وردد الملازم سيلفا كأنه الصدى، بنبرة أكثر مودة من كل ما سبق:

– أجل يا أخي، فمن ينقر عالياً، ومن يدس نفسه في قنّ الغير سيدفع الثمن عموماً. وإلى أي قن دخل بالومينو؟

– في قنّ العاهرة التي أنجبته ـ قال الطيار وهو ينفصل عن مسنده. وكان يجاهد لينهض. رآه ليتوما يقعي، ويقف على قدميه منحنياً، ثم ينهار ويبقى مستنداً على أربع قوائم.

وتابع الملازم سيلفا بود ودون كلل:

– لا، لم يكن في ذلك القن يا أخي، وأنت تعرف ذلك. القنّ الذي دخله كان هناك، في بيورا، في بيت من بيوت القاعدة الجوية. أحد تلك البيوت المجاورة للمطار. أليس هذا صحيحاً؟

رفع الملازم الصغير رأسه وهو ما يزال يجثو على أربع، وخيل لليتوما بأنه سينبح. كان ينظر إليهما بنظرة زجاجية وكئيبة، وبدا عليه أنه يقوم بمجهود عظيم ليسيطر على سكره. وكان يرمش دون توقف.

– من قال لك هذا يا ابن العاهرة؟

فضحك الملازم سيلفا:

Twitter: @ketab_n

– هنا تكمن المسأله يا أخي، كما يقول كانتينفلاس. فلستَ وحدك من يعرف بعض الأمور. أنا أعرف بعضاً منها كذلك. سأخبرك بما أعرفه، وتخبرني أنت بما تعرفه، فنحل اللغز معاً خيراً مما يفعل الساحر مندراك.

– أخبرني أنت أولاً بما تعرفه عن قاعدة بيورا ـ تلعثم الطيار. وكان ما يزال جاثياً على أربع. وفكر ليتوما بأن السكر قد فارقه الآن، لطريقته في الكلام، وخصوصاً، لأن الخوف على ما يبدو قد زايله أيضاً.

وقال الملازم سيلفا:

– بكل سرور يا أخي. ولكن تعال، اجلس، دخن هذه السيجارة. إن السكر يفارقك، أليس كذلك؟ هذا أفضل.

أشعل سيجارتين وقدم العلبة لليتوما. فأخرج الحارس سيجارة وأشعلها.

– انظر، أنا أعرف أنه كان لبالومينو حبيبة هناك في قاعدة بيورا. وأنه كان يعزف لها سيرنادات بجيتاره، وكان يذهب إلى هناك في الليل، وخفية، ليغني لها بصوته الجميل كما يقولون. كان يغني لها أغنيات بوليرو، ويبدو أن هذا النوع من الغناء كان اختصاصه. هذا هو كل شيء، لقد أخبرتك بما أعرفه. الآن دورك. لمن كان يعزف بالومينو موليرو السيرنادات؟

هتف الطيار:

– لا أعرف شيئاً.

كان مذعوراً من جديد، وكانت أسنانه ما تزال تصطك.

Twitter: @ketab_n

فشجعه رئيس ليتوما:

– بل أنت تعرف. تعرف أن زوج تلك التي كان يعزف لها قد ارتاب بالأمر، أو أنه اكتشفه، وتعرف أن موليرو قد اضطر لمغادرة بيورا هرباً. ولهذا جاء إلى هنا أيضاً، ولهذا السبب ورط نفسه في تالارا. لكن الزوج الغيور اكتشف مكانه، وجاء في طلبه وقضى عليه. للسبب الذي قلته أنت يا أخي.. لأنه نقر عالياً، لأنه دخل في قن آخر. هيا، لا تصمت هكذا. من الذي قتله؟

أصابت الطيار نوبة أخرى من التشنجات المعوية. وقد تقيأ هذه المرة، وهو منكمش على نفسه بضجة استعراضية. وعندما انتهى، مسح فمه بيده وبدأ يتحامل. ثم انتهى إلى النحيب كصبي. أحس ليتوما بالقرف، وبشيء من الأسى أيضاً. فقد كان المسكين يتعذب، وهذا بادٍ عليه.

قال الملازم متأملاً، وهو يشكل حلقات من دخان سيجارته:

– ستتساءل لماذا أنا مصرّ على معرفة الفاعل. إنه الفضول يا أخي، ولا شيء سواه. إذا كان قاتله من أفراد قاعدة بيورا فما الذي أستطيع عمله أنا؟ لا شيء. فأنتم لكم قوانينكم، لكم امتيازاتكم، وأنتم تحاكمون أنفسكم بأنفسكم. ليس بإمكاني أن أدسّ ملعقتي في طبقكم. إنه مجرد فضول، أترى؟ ثم إنني سأقول لك أمراً: لو أنني كنت متزوجاً من بدينتي، وجاء أحدهم ليعزف لها سيرنادا، أو ليغني لها بوليرو رومنسي، لكنت قتلته أيضاً. من الذي برّد بالومينو يا أخي؟

حتى في لحظة مثل هذه يتذكر الملازم دونيا أدريانا. إنها داء.

Twitter: @ketab_n

انتحى الملازم الصغير جانباً، متفادياً الأرض الملوثة بقيئه، وجلس على الرمل، متقدماً بضعة سنتمترات من ليتوما ورئيسه. وتذكر ليتوما هذا الإحساس بالخواء الذي ترافقه دغدغته، هذا التوعك الشامل، الذي يعم الجسم، والذي يعرفه جيداً في أزمانه وهو منيع.

وفجأة سأل الطيار، وكان كلامه حتى الآن ممزوجاً بالخوف حيناً، وبالغضب حيناً آخر، أما الآن فكان ممزوجاً بالأمرين معاً:

– وكيف عرفت إنه كان يذهب ليعزف سيرنادات في قاعدة بيورا؟ أية لعنة نقلت لك هذا؟

في هذه اللحظة، انتبه ليتوما إلى أن أشباحاً تقترب. وبعد ثوان كانت تلك الأشباح تقف على شكل نصف دائرة من حولهم. كان عددهم ستة. وكانوا يحملون البنادق والهراوات، وعلى ضوء القمر، تعرف ليتوما على الشارات القماشية الموضوعة على العضد. إنهم من الشرطة الجوية، فهم يجوبون ليلاً الحانات، وصالات الرقص والماخور بحثاً عمن يثير الشغب من رجال القاعدة.

– أنا الملازم سيلفا، من الحرس الأهلي. ما الذي جرى؟

– إننا قادمون لاقتياد الملازم دوفو ـ رد أحدهم. ولم تكن رتبته ظاهرة.. لا بد أنه ضابط صف.

فزمجر الطيار:

– حين تذكر اسمي عليك أن تغسل فمك أولاً ـ وتمكن من النهوض والوقوف على قدميه، رغم أنه كان يترنح وكأنه سيفقد توازنه في أية لحظة ـ . أنا لا اسمح لأحد باقتيادي إلى أي مكان، اللعنة.

فرد رئيس الدورية:

Twitter: @ketab_n

– إنها أوامر الكولونيل يا سيدي الملازم. بعد إذنك، ولكن علينا أن نقتادك.

تنحنح الطيار متلفظاً بشيء وانهار على الأرض، كما في لقطة مأخوذة بكاميرا بطيئة. أعطى آمر الدورية أمراً فاقتربت الأشباح. أمسكوا الملازم دوفو من ذراعيه وساقيه وحملوه. وتركهم هو يفعلون ذلك، مدمدماً بكلمات غير مفهومة.

رآهم ليتوما والملازم سيلفا وهم يختفون في الظلام. وبعد قليل، انطلقت سيارة جيب من بعيد. لا بد أن الدورية قد أوقفت السيارة إلى جانب الماخور. أنهيا تدخين سيجارتيهما وهما مستغرقان في أفكارهما. وكان الملازم هو أولهما بالنهوض، للرجوع. ولدى مرورهما قريباً من الماخور، سمعا صوت موسيقى وضوضاء وضحكات. يبدو أنه يغص بالزبائن.

قال ليتوما:

– أنت رهيب في جعلك الناس يتكلمون. كم أحسنت مسايرته، إلى أن استخرجت منه بعض الأشياء!

فأكد الملازم:

– لم أستخرج منه كل ما يعرفه. لو أنه كان لدينا مزيد من الوقت، فربما كان أفضى لنا بكل شيء ـ ثم بصق وتنفس بشهية، وكأنه يريد أن يملأ رئتيه بالهواء البحري ـ . سأقول لك شيئاً يا ليتوما. أتعرف ما الذي أشمه؟

– ماذا يا سيدي الملازم؟

– إن جميع من في القاعدة يعرفون ما الذي حدث. من البواب

Twitter: @ketab_n

وحتى ميندرياو.

فوافق ليتوما:

– لا أستغرب ذلك. هذا هو الانطباع الذي أثاره فيّ الملازم دوفو على الأقل. فهو يعرف جيداً من الذي قتل النحيل.

سارا صامتين لفترة لا بأس بها، في تالارا النائمة. معظم البيوت الخشبية كانت مظلمة، ولم تكن أضواء القناديل تظهر إلا في بعض البيوت المتفرقة هنا وهناك. وكذلك في الأعلى، وراء السياج المعدني، في المنطقة المحظورة، كان الظلام شاملاً أيضاً.

وفجأة، تكلم الملازم بصوت مختلف:

– ساعدني في تنفيذ حيلة يا ليتوما. قم بجولة على شاطئ الصيادين، وانظر إذا كان الزورق **ليون دي تالارا** قد أبحر. إذا كان مبحراً، فما عليك إلا أن تذهب للنوم وحسب، أما إذا كان على الشاطئ، فتعال إلى المطعم لتنبهني.

فقال ليتوما مذهولاً:

– كيف يا سيدي الملازم. أتعني أنك...

ووافق الملازم بابتسامة شبه عصبية:

– أعني أنني سأحاول. لست أدري إذا كانت المعجزة ستقع هذه الليلة. قد لا يحدث ذلك. ولكنني لن أخسر شيئاً في المحاولة. إنها أصعب مما ظننت بكثير. إنما سيحصل يوماً، لأن ـ أتعلم؟ ـ هذا المسيحي لن يموت قبل أن يرمي هذه البدينة وقبل أن يعرف من هم قتلة بالومينو. إنهما هدفاي في الحياة يا ليتوما. إنهما أهم من الترقية، حتى لو لم تصدق ذلك. هيا، اذهب.

Twitter: @ketab_n

فكر ليتوما: «كيف يجد الحماس لهذه الأمور في هذا الوقت». وتخيل دونيا أدريانا، منكمشة على نفسها في سريرها، حالمة، غافلة عن الزيارة التي ستتلقاها. آه، آه، اللعنة، يا للمجنون الذي تمخض عنه الملازم سيلفا. وإذا ما لانت له هذه الليلة؟ لا، لقد كان ليتوما متأكداً من أن دونيا أدريانا لن تتيح له هذه المتعة أبداً.

ومن بين أكواخ القصب المظلمة خرج كلب لينبح عليه. فأفزعه بضربة من قدمه. إن رائحة السمك تعبق في تالارا دوماً، ولكن الرائحة في بعض الليالي، كهذه الليلة، تزداد حتى تصبح غير محتملة. أحس ليتوما بنوع من الدوار. وسار لبعض الوقت مغطياً أنفه بالمنديل. كانت قوارب كثيرة قد خرجت للصيد، ولم يبق على الشاطئ إلا حوالي ستة قوارب، ليس **ليون دي تالارا** بينها. تفحصها واحداً واحداً ليتأكد. وحين كان يتأهب للانصراف، لفت انتباهه وجود حزمة مركونة فوق أحد الكثبان الرملية.

دمدم قائلاً:

– مساء الخير.

وقالت المرأة بضيق لأنها قُوطعت:

– مساء الخير.

– ولكن، ما الذي تفعلينه هنا في مثل هذه الساعة يا دونيا أدريانا.

كانت صاحبة المطعم ترتدي كنـزة سوداء فوق فستانها وتمضي حافية، كعادتها.

– جئت بالطعام لماتياس. وبعد أن أبحر، بقيت لاستنشاق قليل

Twitter: @ketab_n

من الهواء. لا أشعر بالنعاس. وأنت يا ليتوما؟ ما الذي جاء بك إلى هنا؟ أهو موعد غرامي؟

انفجر الحارس بالضحك. جلس القرفصاء مقابل دونيا أدريانا، وبينما هو يضحك، تحت الضوء الخافت ـ إذ أن غيمة حجبت القمر – كان يتفحص هذه التكوينات الوافرة، السخية، التي طالما تاق إليها الملازم سيلفا.

– مم تضحك؟ هل جُننت أم أنك سكران؟ آه، لا بد أنك كنت في محل الصيني لياو.

واصل ليتوما الضحك:

– لا شيء من هذا يا دونيا أدريانا. لو أخبرتك فستموتين من الضحك أيضاً.

– أخبرني إذن. ولا تضحك وحدك لأنك تبدو سخيفاً.

كانت صاحبة المطعم طيبة المزاج ومتحمسة دوماً، ولكن ليتوما لاحظ أنها حزينة بعض الشيء هذه الليلة. كان ذراعاها متقاطعين على صدرها بينما إحدى قدميها تعبث بالرمل.

سألها بجدية:

– هل أنت متضايقة من شيء يا دونيا أدريانا؟

– لست متضايقة. إنني قلقة يا ليتوما. ماتياس لا يريد الذهاب إلى المستوصف. إنه عنيد جداً ولا أستطيع إقناعه.

توقفتْ قليلاً وتنهدت. ثم روت له أنه منذ شهر على الأقل، والشخير لا يفارق زوجها، وأنه يبصق دماً حين تأتيه نوبات سعال قوية. وقد جاءته ببعض الأدوية من الصيدلية وجعلته يتناولها بما

Twitter: @ketab_n

يشبه الإرغام، ولكنها لم تفده في شيء. ربما هو مريض بمرض خطير ولا يمكن شفاؤه بأدوية الصيدلية هذه. وقد يحتاج فجأة لصورة شعاعية أو لعملية جراحية. والعنيد لا يريد أن يعرف شيئاً عن المستوصف ويقول إن المرض سيزول، وإن الذهاب إلى الطبيب من أجل سعلة هو من شؤون المنعمين. ولكنه لا يستطيع أن يجعلها تصمت: إن حالته أسوأ مما يدعي، لأنه يتكلف مشقة أكبر كل ليلة من أجل الخروج إلى الصيد. وقد منعها من إخبار أولادهما عن بصقات الدم التي يبصقها. ولكنها ستخبرهم بذلك يوم الأحد، حين يأتون لزيارتها. لترى إن كانوا سيقودونه إلى الطبيب.

– أنت تحبين دون ماتياس كثيراً، أليس كذلك يا دونيا أدريانا؟

فابتسمت صاحبة المطعم:

– لقد عشت معه نحو خمس وعشرين سنة. يبدو لي كذباً أن كل ذلك الزمن قد مضى يا ليتوما. لقد تزوجني ماتياس وأنا ما أزال غَضَّة، بالكاد خمس عشرة سنة. كنت أخافه، لأنه كان أكبر مني بكثير. ولكنه لاحقني كثيراً حتى صار يجد متعة في ذلك. كانوا يقولون إنه مسن، وإن الزواج لن يدوم طويلاً. وقد أخطؤوا كما ترى. لقد دام زواجنا، وعشنا رغم كل شيء بحالة جيدة. لماذا تسألني إن كنتُ أحبه؟

– سأشعر الآن ببعض العار لو قلت لك ما الذي جئت أفعله هنا يا دونيا أدريانا.

توقفت القدم التي كانت تعبث بالرمل على بعد ميلمترات من حيث كان يقرفص الحارس.

Twitter: @ketab_n

– دعك من الأسرار يا ليتوما. هل تطرح عليّ أحجية؟

– لقد بعث بي الملازم لأرى إن كان دون ماتياس قد خرج للصيد – همس، خافضاً صوته وبنبرة خبيثة. ثم توقف منتظراً، وبما أنها لم توجه إليه أي سؤال، أضاف: ـ لأنه ذهب لزيارتك يا دونيا أدريانا، وهو لا يريد أن يأتي زوجك ويضبطه. لا بد أنه يطرق الآن بابك.

ساد صمت. وكان ليتوما يحس بتلمظ الأمواج التي تأتي لتموت على الشاطئ، قريباً منه. وبعد لحظة، سمع دونيا أدريانا تضحك، ببطء وبسخرية، كابحة نفسها وكأنها لا تريده أن يسمعها. وعاد هو يضحك كذلك. وبقيا على هذه الحال لبعض الوقت، يضحكان بالعدوى، وفي كل مرة بشدة أكبر.

– أي خبث في سخريتنا هكذا من غرام الملازم يا دونيا أدريانا.

فقالت صاحبة المطعم وهي تضحك:

– لا بد أنه مازال يطرق الباب ويحك النافذة، متوسلاً أن أسمح له بالدخول. واعداً إياي بالذهب والفضة لأفتح له. هاهاها! وكل ذلك للأشباح فقط! هاهاها!

وضحكا بعد ذلك لبعض الوقت. وحين صمتا، رأى ليتوما أن قدم صاحبة المطعم قد عادت لتكشط الرمل بانتظام وتصميم. وفي البعيد، دوّت صفارة مصفاة البترول. إنهم يستبدلون وردية العمال، فالعمل هناك يتواصل ليلاً ونهاراً. وسُمعت كذلك جلبة شاحنات على الطريق العام.

– الحقيقة أنك تجننين الملازم يا دونيا أدريانا. لو أنك

Twitter: @ketab_n

تسمعينه. إنه لا يتكلم عن أي شيء آخر سواك. بل إنه لا ينظر إلى امرأة أخرى. إنك ملكة تالارا في نظره.

سمع دونيا أدريانا تضحك راضية من جديد. وقالت دون أدنى أثر للغضب:

– إنّ يده طويلة، سأدلق عليه الحساء في يوم من الأيام لجرأته معي. أهو مجنون من أجلي؟ إنها مجرد نزوة يا ليتوما. لقد أقنع نفسه بغزوي، وبما أنني لا أوليه اهتماماً، فإنه يزداد تصميماً. أتظنني حمقاء يا ليتوما. إنها نزوة وحسب. وإذا ما استجبت له مرة واحدة، فسينتهي كل شيء.. سيفارقه الغرام.

– وهل ستستجيبين له ولو مرة واحدة يا دونيا أدريانا؟

وردت صاحبة المطعم على الفور، مصطنعة الانزعاج. لكن ليتوما أدرك أنها تتصنع:

– لن أسمح له طبعاً ولو بعُشر مرة. فلست واحدة من هؤلاء. إنني أم أسرة يا ليتوما. أنا لا أسمح لرجل آخر سوى زوجي بلمسي.

– سيموت الملازم إذن يا دونيا أدريانا. أقسم لك أنني لم أر في حياتي رجلاً يرتعش هكذا من أي شيء كما يرتعش هو منك. إنه يحدثك حتى في أحلامه، تصوري.

– وما الذي يقوله عندما يحدثني في أحلامه؟

– لا أستطيع أن أخبرك، إنها بذاءات فاحشة يا دونيا أدريانا.

أطلقت قهقهة مجلجلة. وحين انتهت من الضحك، نهضت عن كومة الرمل، وانطلقت سائرة. اتخذت الطريق إلى مطعمها، وليتوما

Twitter: @ketab_n

يتبعها.

قالت:

– أنا سعيدة لهذا اللقاء معك. لقد جعلتني أضحك، وخلصتني من القلق الذي كنت أعانيه.

قال الحارس:

– وأنا سعيد كذلك يا دونيا أدريانا. فبفضل حديثنا نسيت النحيل الذي قتلوه. إنه مستقر في رأسي مذ رأيته في الأرض الصخرية. إنه يسبب لي الكوابيس أحياناً. آمل ألا يفعل ذلك هذه الليلة.

ودّع دونيا أدريانا أمام باب المطعم ومشى باتجاه الموقع. إنه ينام هناك مع الملازم، حيث ينام الملازم في غرفة واسعة، مجاورة للمكتب، وليتوما في نوع من مستودع المؤونة ملاصق لفناء الزنازين. أما بقية الحراس فهم متزوجون ويعيشون في بيوت في القرية. وبينما هو يذرع الشوارع المقفرة، كان يتخيل الملازم يحك زجاج نافذة بيت المطعم ويهمس بكلمات حب للريح فقط.

في المفوضية، رأى ورقة مثبتة بقبضة الباب. لقد وُضعت هناك بصورة بارزة، ليروها عند الدخول. انتزعها بحذر، وفي الداخل ـ حجرة من ألواح خشبية، فيها شعار وراية، وطاولتا مكتب، وسلة مهملات ـ أضاء المصباح. كانت الورقة مكتوبة بحبر أزرق، بيد شخص له خط منمق وأنيق، شخص يتقن الكتابة دون أخطاء إملائية.

«مَنْ قتلوا بالومينو موليرو ذهبوا لإخراجه من بيت دونيا لوبي، في قرية أموتابي. وهي تعرف ما حدث. اسألوها».

Twitter: @ketab_n

كثيراً ما تتلقى المفوضية خطابات مغفلة التوقيع، خطابات حول مختلف القضايا وحول مصلحة الجمارك في الميناء. وقد كان هذا هو الخطاب الأول المتعلق بمقتل النحيل.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

قال الملازم سيلفا ساخراً:

– أموتابي[1]، يا للاسم! أيكون صحيحاً أنه آت من قصة الخوري وخادمته؟ ما رأيك يا دونيا لوبي؟

تقع أموتابي على بعد خمسين كيلومتراً إلى الجنوب من تالارا، وسط صخور كلسية وكثبان ملتهبة. وتوجد حول القرية أحراش يابسة، ومجموعات من أشجار الخروب وبعض أشجار الأوكالبتوس المتفرقة، بقع شاحبة الاخضرار تبعث السعادة في المشهد الرمادي الرتيب. لقد انقبضت الأشجار، واستطالت، وتلوت لتمتص الرطوبة الضئيلة المتوفرة في الجو، فكانت تبدو من بعيد وكأنها ساحرات تومئ. وتحت الفيء المفضال الذي تقدمه جذوعها الملتوية، توجد دائماً قطعان ماعز ضامرة، تقضم الأغصان المكسرة المتدلية من الفروع؛ وتوجد كذلك عصافير ناعسة، كما يوجد راع، غالباً ما يكون صبياً صغيراً أو صبية صغيرة السن، ببشرة ملوحة وعينين حيويتين.

---

[1]– Amotape: دمج لكلمتي amo وتعني «سيد» و tape وهي صيغة الأمر من الفعل «غطى». وهكذا يكون معنى الاسم: «غطّ يا سيدي».

Twitter: @ketab_n

كرر الملازم سيلفا:

– أوتظنين أن قصة الخوري وخادمته حول تسمية أموتابي صحيحة يا دونيا لوبي؟

القرية هي خليط أكواخ من طين وقصب، وزرائب مبنية من أغصان الأشجار، إضافة إلى بعض البيوت القليلة المزودة بنوافذ حديدية معتبرة، متراكمة حول ساحة قديمة تحيط بها ظلة خشبية وأشجار لوز وشجيرات نبات الجهنمية، وفيها تمثال حجري لسيمون رودريغيث، معلم بوليفار، الذي مات في هذا المكان المعزول. ويعيش أهالي أموتابي، وهم أناس فقراء ومعفرون، على تربية الماعز وزراعة القطن، وعلى ما ينفقه سائقو الشاحنات والحافلات الذين ينحرفون عن الطريق العام الواصل ما بين تالارا وسويانا ليتناولوا في القرية إبريقاً من التشيتشة[1] أو ليأكلوا شيئاً من البيكيو. واسم القرية كما تقول أسطورة بيورية يرجع إلى العهد الاستعماري، حين كانت أموتابي قرية ذات شأن، وكان لها كاهن بخيل، يكره دعوة الغرباء إلى الطعام. وكانت خادمته التي تدافع عن بخله، تحذره حين ترى مسافراً يطل: «سيدي، غطِّ، غطَّ القدر، فهناك شخص قادم». أيكون ذلك صحيحاً؟

ودمدمت المرأة أخيراً:

– من يدري. قد يكون صحيحاً وقد لا يكون. الله أعلم.

كانت نحيلة جداً، ذات بشرة زيتونية جافة تغور ما بين عظامها البارزة في وجنتيها وذراعيها. مذ رأتهما يصلان، نظرت

---

[1]– التشيتشة: مشروب كحولي يشبه البيرة، ويصنع من الذرة المخمرة.

Twitter: @ketab_n

إليهما بارتياب. «بريبة أكبر من تلك التي ينظر بها إلينا الناس عادة»، هكذا فكر ليتوما. كانت تتفحصهما بعينين عميقتين ووجلتين، وبين الحين والحين، كانت تشد ذراعيها كما لو أن قشعريرة قد فاجأتها. وحين تلتقي نظرتها بنظرة أحدهما، فإن الابتسامة التي تحاول رسمها تخرج زائفة لدرجة تبدو معها وكأنها مكيدة. وكان ليتوما يفكر: «كم أنت خائفة أيتها الصديقة! إنك تعرفين شيئاً بكل تأكيد». لقد نظرتْ إليهما هكذا، بينما هي تقدم لهما الطعام المؤلف من الموز المقلي والملح وقديد التشابيلو. وهكذا كانت تنظر إليهما كلما طلب منها الملازم استبدال قرعة النبيذ. متى سيبدأ رئيسه بتوجيه الأسئلة إليها؟ أحس ليتوما بأن التشيتشة بدأت تخدر دماغه. كان الوقت منتصف النهار، وهناك قيظ ألف شيطان. وكانا، هو والملازم، الزبونين الوحيدين. ومن المحل، كانت تظهر كنيسة سان نيكولاس المائلة، صامدة ببطولة في مواجهة مرور الزمن، وفيما وراءها، عبر الرمال، تبدو الشاحنات المتوجهة إلى سويانا أو إلى تالارا. لقد أوصلتهما إلى هنا شاحنة محملة بأقفاص الدجاج. وتركتهما على الطريق العام. وأثناء اجتيازهما للقرية، رأيا وجوهاً فضولية تطل من كل أكواخ أموتابي. كانت ترتفع على عدد من الأكواخ رايات بيضاء، ترفرف مثبتّة بعصيّ. سأل الملازم أي بيت من هذه البيوت التي تقدم مشروب التشيتشة هو بيت دونيا لوبي. وأشارت جوقة الصبية الذين كانوا يحيطون به في الحال إلى الكوخ الذي هما فيه الآن. تنهد ليتوما مستريحاً؛ فللمرأة وجود على الأقل، والرحلة لم تكن عبثاً إذن. لقد جاءا في العراء، وهما يشمان رائحة ذرق الدجاج، ويزيحان الريش الذي

Twitter: @ketab_n

يدخل في فميهما وآذانهما، وقد أصابهما الصمم من نقيق رفاقهم في الرحلة. وسببت لهما أشعة الشمس صداعاً. والآن، عند العودة، عليهما أن يسيرا ثانية حتى الطريق العام، والتوقف هنا، ومدّ ذراعيهما إلى أن يوافق سائق على إعادتهما إلى تالارا.

كان الملازم سيلفا قد قال لدى دخولهما:

– صباح الخير يا دونيا لوبي. لقد أتينا لنرى إذا كانت التشيتشة وقديد التشابيلو والموز المقلي الذي تقدمين لذيذة كما يشاع. لقد حدثونا عنها. وآمل ألا تخيبي ظننا.

وبالنظر إلى الطريقة التي تأملتهما بها، فإن صاحبة المطعم لم تبتلع حكاية الملازم. وخصوصاً ـ فكر ليتوما ـ إذا أخذنا بالاعتبار حموضة التشيتشة وتفاهة طعم فتائل اللحم المقدد. لقد كان صبية أموتابي يحومون حولهما أول الأمر، لكنهم أخذوا يملون وينصرفون شيئاً فشيئاً. ولم يبق الآن في الكوخ، حول النار، وعلى الخوابي الطينية، وعلى الطراحة، وعلى الطاولات المائلة الثلاث الموضوعة فوق الأرض الترابية سوى بعض الصغيرات شبه العاريات، يلعبن بقرعات فارغة. لا بد أنهن بنات دونيا لوبي، رغم أنه يبدو من الصعب الاعتقاد بأن يكون لامرأة في سنها بنات صغيرات هكذا. أو ربما أنها ليست هرمة إلى هذا الحد؟ لقد باءت بالفشل جميع المحاولات لفتح حوار معها. حدثاها عن الطقس، عن الجفاف، عن موسم القطن هذا العام، وعن إطلاق تسمية أموتابي على القرية، وكانت ترد دوماً بالجواب ذاته، بكلمات مجزوءة أو بالصمت أو التملص.

– سأقول لكَ ما سيفاجئك يا ليتوما. فأنت أيضاً تظن أن دونيا

Twitter: @ketab_n

أدريانا بدينة، أليس كذلك؟ إنك مخطئ. إنها امرأة حسنة التصريف، وهذا مختلف جداً.

متى سيبدأ الملازم التحقيق؟ وكيف سيفعل ذلك؟ كان ليتوما يشعر وكأنه راقد على جمر، معلق بين المفاجأة والتقدير اللذين تثيرهما فيه حنكة رئيسه. لقد كان موقناً من أن الملازم سيلفا حريص مثله على كشف النقاب عن سر مقتل بالومينو موليرو. وكان شاهداً على الإثارة التي بعثتها فيه الورقة المُغْفَلَة ليلة أمس. لقد تشمم الورقة كما يتشمم كلب صيد طريدته، وقال مبدياً رأيه: «ليست مداعبة. إنها تحمل نتانة شيء صحيح. يجب علينا الذهاب إلى أموتابي».

– أتعرف الفرق بين امرأة بدينة وأخرى حسنة التصريف يا ليتوما؟ البدينة مترهلة، تقطر دهناً، رخوة، تلمسها فتغوص يدك كما في جبن دهني. تشعر معها بأنك قد خُدعت. أما المرأة حسنة التصريف فهي صلبة، ممتلئة، لديها ما يلزم ويزيد. وكل شيء في مكانه المناسب. فهي موزعة بشكل متقن ومتناسب. تلمسها فتجد مقاومة، تضغط فترتد يدك. لديها دائماً فائض، زيادة، لتشبع منها وتهدي للآخرين.

في الطريق إلى أموتابي، وبينما شمس الصحراء تثقب قبعتيهما، كان الملازم يحدث نفسه دون توقف عن الرسالة المغفلة، مفكراً بالملازم دوفو وبالكولونيل ميندرياو وابنته. ولكن منذ دخولهما كوخ دونيا لوبي، توارى فضول الملازم سيلفا حول قضية بالومينو موليرو. ولم يفعل شيئاً خلال تناول الطعام سوى الحديث عن اسم اموتابي، أو عن دونيا أدريانا طبعاً، وكان يفعل ذلك بصوت مسموع، دون أن

Twitter: @ketab_n

يهتم بسماع السيدة لوبي لبذاءاته.

– إنه الفرق بين الشحم والعضل يا ليتوما. البدينة هي شحم. أما المرأة حسنة التصريف، فهي سلة عضلات. إنَّ ثديين عضليين هما أشهى ما في الدنيا، بل إنهما أشهى من قديد دونيا لوبي هذا. لا تضحك يا ليتوما، فالأمر هكذا مثلما أقوله لك. أنت لا تعرف في هذه الأمور، أما أنا فأعرف. فمؤخرة كبيرة وعضلية، وأفخاذ عضلية، وظهر وردفا امرأة ذات عضلات، هي مأكول أمراء وملوك وجنرالات. وي، رباه! وي، وي، وي! هكذا هي حبي في تالارا يا ليتوما. ليست بدينة وإنما حسنة التصريف. امرأة ذات عضلات، يا للعنة. هذا هو ما يعجبني.

كان الحارس يضحك بانضباط، بينما دونيا لوبي تسمع ثرثرة الضابط بجدية وهي تتفحصهما. وكان ليتوما يفكر: «إنها تنتظر»، بشرود كشروده. متى سيقرر الملازم البدء؟ يبدو أنه ليس مستعجلاً. فهو يثرثر مسترسلاً في موضوع البدينة.

– ستسأل: كيف يعرف الملازم أن دونيا أدريانا هي امرأة حسنة التصريف وليست بدينة؟ هل لمسها؟ صحيح أنني لم أكد ألمسها يا ليتوما. مجرد، مجرد لمسة عابرة هنا، احتكاك على السريع. مجرد هراء، أعلم هذا، وأنت محق فيما تفكر به. ولكنني رأيتها يا ليتوما. انتهى الأمر، لقد بحت بسري. رأيتها تستحم بالقميص الداخلي، هناك على الشاطئ الصغير حيث تذهب عجائز تالارا للاستحمام كي لا يراهن الرجال. ذاك الشاطئ الذي وراء الفنار، شاطئ الأحجار والصخور، إلى جوار صخرة السرطانات. لماذا تظنني أغيب دوماً في حوالى الساعة الخامسة، حاملاً منظاري، وأقول لك

Twitter: @ketab_n

بأنني ذاهب لتناول فنجان قهوة في الأوتيل ريال؟ لماذا تظنني أتسلق الصخرة القائمة عند ذلك الشاطئ؟ لماذا كل هذا يا ليتوما؟ لكي أنظر إلى حبي وهي تستحم بالقميص الداخلي الوردي. فما أن يبتل القميص حتى تبدو وكأنها عارية يا ليتوما. رباه، اسكبي عليّ ماء يا دونيا لوبي، فإنني أحترق! أطفئي حريقي هذا! هناك يمكن رؤية ما هو الجسد حسن التصريف يا ليتوما. الإليتان صلبتان، النهدان صلبان، عضلات صافية من الرأس حتى القدمين. سآخذك معي يوماً وأريك إياها. سأعيرك منظاري. ستصاب بالحول يا ليتوما. سترى أنني على حق. سترى أشهى جسد في تالارا. أجل يا ليتوما، أنا لستُ غيوراً، على الأقل مع مرؤوسي. إذا ما كنت عاقلاً، فسأجعلك تتسلق صخرة السرطانات يوماً. ستصاب بإغماءة سعادة لدى رؤيتك تلك الأنثى.

يبدو وكأنه نسي ما الذي جاء يفعله في اموتابي، اللعنة. ولكن حين بدأ فقدان الصبر يبعث اليأس في نفس ليتوما، صمت الملازم سيلفا فجأة، ونزع نظارته السوداء ـ رأى الحارس أن عيني رئيسه براقتان وحادتان ـ ومسحها بمنديله ثم أعاد وضعهما من جديد. أشعل سيجارة بهدوء شديد، وتكلم بصوت مفرط في العذوبة:

– ثمة أمر يا دونيا لوبي، تعالي، تعالي، اجلسي معنا هنيهة. علينا أن نتحدث، أليس كذلك؟

– وبماذا سنتحدث؟ ـ دمدمت المرأة وأسنانها تصطك. لقد بدأت ترتجف وكأنها مصابة بالحمى. وانتبه ليتوما إلى أنه يرتجف أيضاً.

فابتسم لها الملازم سيلفا:

– عن بالومينو موليرو يا دونيا لوبي، ومن سيكون سواه؟ فلن

Twitter: @ketab_n

أتحدث معك عن حبي في تالارا، عن بدينتي اللذيذة، ألا ترين ذلك؟ تعالي، تعالي. اجلسي هنا.

– لا أعرف من هو هذا الشخص ـ تلعثمت المرأة وقد تغيرت ملامحها. وجلست مثل دمية متحركة على المقعد الصغير الذي أشار إليه الملازم. لقد هزلت فجأة وبدت أشد نحولاً مما كانت عليه من قبل. كانت تحرك وجهها بإيماءات غريبة، وتلوي فمها، وكررت:

– أقسم أنني لا أعرف من يكون.

– طبعاً أنت تعرفين من هو بالومينو موليرو يا دونيا لوبي ـ أنبها الملازم سيلفا. وكان قد توقف عن الابتسام وبدأ يتكلم بلهجة باردة وقاسية فاجأت ليتوما، الذي فكر: «أجل، أجل، ها نحن سنعرف أخيراً ما الذي حدث». وتابع الملازم: ـ الطيار الذي قتلوه في تالارا. الذي أحرقوه بالسجائر وشنقوه. الذي دسوا عصا في مؤخرته. بالومينو موليرو، النحيل الذي كان يغني ألحان البوليرو. لقد كان هنا، في هذا البيت، حيث نحن الآن، أنا وأنت. ألا تذكرينه الآن؟

لاحظ ليتوما أن المرأة قد فتحت عينيها كثيراً، وكذلك فمها. ولكنها لم تقل شيئاً. بقيت هكذا، مفككة، مرتعشة، كطفلة تريد البدء بالبكاء.

أطلق الملازم نفثة دخان، وبدا كأنه يتسلى بمراقبة تعرجات الدخان الدائرية:

– سأكلمك بصراحة يا سيدتي. إذا أنت لم تتعاوني، وإذا أنت لم تجيبي على أسئلتي، فإنك ستقعين في ورطةٍ ابنة عاهرة. إنني أقول لك هذا، بكلمات بذيئة، لتدركي خطورة الوضع الذي أنت

Twitter: @ketab_n

فيه. لا أريد اعتقالك، ولا أريد حملك إلى تالارا، ولا أريد إدخالك السجن. أنا لا أريدك أن تقضي بقية حياتك في السجن، كمتسترة ومشاركة في جريمة قتل. أؤكد لك أنني لا أريد شيئاً من ذلك يا دونيا لوبي.

كانت الصغيرة تواصل إظهار تقطيبة البكاء، فرفع ليتوما إصبعه إلى شفتيه، مشيراً إليها أن تصمت. فأخرجت له لسانها وابتسمت.

– سيقتلونني ـ نشجت المرأة ببطء. لكنها لم تكن تبكي، كان في عينيها الجافتين حقد ورعب بهيمي. ولم يكن ليتوما ليتجرأ على التنفس، فقد خيل إليه بأن أمراً شديد الخطورة سيحدث إن هو تحرك أو أثار ضجة. رأى الملازم سيلفا يفتح قراب مسدسه برصانة بالغة، ويخرج المسدس ويضعه على الطاولة، مزيحاً بقايا اللحم المقدد. وداعب ظهرها بينما هو يتكلم:

– لن يمس أحد شعرة منك يا دونيا لوبي إذا أنتِ أخبرتنا بالحقيقة. فهذا موجود للدفاع عنك إذا اقتضى الأمر.

ومن بعيد، حطم نهيق أتان ممسوسة السكون المخيم في الخارج. وفكر ليتوما: «إنهم يعشرونها».

– لقد هددوني. قالوا لي إذا ما فتحت فمك ستموتين ـ عوت المرأة، رافعة ذراعيها. كانت تضغط وجهها بكلتا يديها وتتلوى من قدميها إلى رأسها. وكان اصطكاك أسنانها مسموعاً: ـ أي ذنب اقترفت، ما الذي فعلته أنا يا سيدي. لا يمكنني أن أموت، لا يمكنني أن أترك هؤلاء الصغار وحدهم. لقد قتل جرّار زوجي يا سيدي.

Twitter: @ketab_n

وعاد الأطفال الذين كانوا يلعبون على الأرض لسماعها تصرخ، ولكنهم ما لبثوا بعد لحظة أن تخلوا عن اهتمامهم بها وعادوا إلى لعبهم، والطفلة التي كانت تبكي، حبت حتى عتبة الكوخ، فصبغت الشمس شعرها وجلدها باللون الأحمر. كانت تمص يدها.

عوت المرأة:

– وهم أروني مسدساتهم أيضاً، فلمن أنصاع، لكم أم لهم؟

كانت تحاول البكاء، تلوي فمها، تعصر ذراعيها، لكن عينيها بقيتا جافتين. فضربت صدرها ورسمت إشارة الصليب.

ألقى ليتوما نظرة إلى الخارج، لا، صرخات المرأة لم تجتذب الجيران. كانت تظهر من خلال فتحة الباب والفجوات التي بين القضبان بوابة كنيسة سان نيكولاس المغلقة والساحة المقفرة. والأطفال الذين كانوا يطوفون قبل لحظات ويضربون بأقدامهم كرة مصنوعة من خرق حول الميدان، لم يعد لهم وجود هناك. وفكر: «لقد أخذوهم، خبئوهم. لقد سحبهم آباؤهم من أعناقهم وأدخلوهم إلى الأكواخ، كيلا يسمعوا ولا يروا ما سيحدث هنا». جميعهم يعرفون إذن قضية بالومينو موليرو؛ جميعهم كانوا شهوداً. الآن سينكشف السر إذن.

– اهدئي، ولنمض خطوة خطوة، دون تسرّع ـ قال الملازم. لكن نبرة صوته، على خلاف كلماته، لم تكن تريد طمأنتها وإنما مضاعفة خوفها. لقد كان صوته بارداً ومتوعداً: ـ لن يقتلك أو يقربك أحد، كلمة رجل، شريطة أن تحدثيني بصراحة، وأن تخبريني بالحقيقة كلها.

تلعثمت المرأة:

Twitter: @ketab_n

– لا أعرف شيئاً، لا أعرف شيئاً، إنني خائفة، رباه ـ ولكن في ملامحها وخذلانها كان واضحاً أنها تعرف كل شيء، وأنها لا تملك القدرة على رفض الإدلاء به:ـ ساعدني أيها القديس نيكولاس.

رسمت إشارة الصليب مرتين وقبلت أصابعها المتصالبة.

أمرها الملازم:

– فلنبدأ من البداية. متى ولماذا جاء بالومينو موليرو إلى هنا. منذ متى كنتِ تعرفينه؟

فاعترضت المرأة ـ وكانت ترفع صوتها وتخفضه وكأنها فقدت السيطرة على حنجرتها، وهي تقلب عينيها:

– لم أكن أعرفه، لم أكن قد رأيته في حياتي. ما كنت لأعطيه سريراً هنا لولا الفتاة. كانا يبحثان عن الكاهن، عن الأب ازيكيل. ولكنه لم يكن موجوداً. إنه لا يتواجد هنا تقريباً، فهو مسافر دوماً.

وأفلت لسان ليتوما:

– والفتاة؟

وجعلته نظرة الملازم يعض على لسانه.

ارتجفت دونيا لوبي:

– الفتاة. أجل، هي كنت أعرفها. لقد توسلا إلي كثيراً حتى لنت لهما. لم أفعل ذلك من أجل النقود يا سيدي، والله أعلم كم أنا بحاجة إليها، فقد دهس الجرار زوجي. ألم أقل لك هذا؟ أقسم بربنا الذي يرانا ويسمعنا هناك في الأعلى، وبالقديس نيكولاس الذي يحمينا. ثم إنه لم يكن لديهما نقود. كانا يملكان ما يكاد يكفي ثمناً للطعام فقط. قدمت لهما السرير مجاناً؛ فعلت ذلك بدافع الشفقة، لأنهما كانا سيتزوجان، لقد كانا غضيّن جداً، كانا

Twitter: @ketab_n

أشبه بالأطفال؛ ولأجل الحب الذي كان يبدو أن كلاً منهما يكنه للآخر يا سيدي. وكيف كنت سأعرف ما الذي سيحدث. ما الذي فعلته لك يا ربي لتُدخلني في نكبة كهذه.

انتظر الملازم وهو ينفث الدخان في حلقات ويرمي المرأة بنظره من خلال نظارته، بينما دونيا لوبي ترسم إشارة الصليب، وتعصر ذراعيها وتشد وجهها وكأنها تريد تهشيمه.

قال دون أن يبدل من نبرة صوته:

– أعرف أنك امرأة طيبة. لا تقلقي، وتابعي. كم يوماً بقي العاشقان هنا؟

وجرح النهيق الفاحش الصباح ثانية، وكان أقرب هذه المرة. سمع ليتوما وقع حوافر، فاستنتج: «لقد عشَّرها».

ردت دونيا لوبي:

– يومان فقط. بقيا بانتظار الكاهن. لكن الأب أزيكيل كان مسافراً. إنه يسافر دوماً. يقول إنه يذهب لتعميد وتزويج أناس في مزارع الجبال، وإنه يذهب إلى أياباكا، لأن السيد كوتيفو شديد الروع، ولكن من يدري. إنه يقول ألف شيء عن رحلاته الكثيرة. وقد قلت لهما ألا ينتظرا كثيراً، لأنه قد يتأخر أسبوعاً، أو عشرة أيام.. من يدري كم من الوقت سيتأخر. وكانا سيذهبان في صباح اليوم التالي إلى سان خاثينتو. كان يوم أحد وقد نصحتهما أنا نفسي بالذهاب إلى هناك. ففي أيام الآحاد يذهب كاهن من سويانا إلى سان خاثينتو لأداء القداس. وبإمكانه هو أن يزوجهما إذن، هناك في كنيسة المزرعة. كان كل ما يرغبان فيه من الدنيا هو كاهن ليزوجهما. إن بقاءكما هنا سيكون بلا فائدة، اذهبا، اذهبا إلى سان خاثينتو.

Twitter: @ketab_n

قاطعها الملازم:

– لكن العاشقين لم يتمكنا من الذهاب في يوم الأحد ذاك.

فارتعدت دونيا لوبي:

– لا. وبقيت صامتة تنظر إلى عيني الضابط، ثم إلى ليتوما، ومرة أخرى إلى الضابط. كانت ترتعش وأسنانها تصطك.

وساعدها الضابط متهجياً:

– لأن...

فأسرّت وهي تخرج عن طورها:

– لأنهم جاؤوا فـي أثرهما مساء السبت.

لم يكن الظلام قد خيم بعد. وكانت الشمس ما تزال كرة من نار ما بين أشجار الأوكالبتوس وأشجار الخروب، وكان توتياء بعض السقوف يتلألأ ببريق الغسق، وكانت هي تطبخ أثناء ذلك، منحنية على الموقد، فرأت السيارة التي خرجت عن الطريق العام متجهة نحو أموتابي، وجاءت إلى الساحة مباشرة وهي تتقافز، وتشخر، وتثير عاصفة من الغبار. لم ترفع دونيا لوبي عينيها عنها وهي تراها تقترب. وسمعا هما كذلك صوت السيارة ورأياها. لكنهما لم يهتما بها إلى أن توقفت بجوار الكنيسة. كانا يجلسان هناك، ويتبادلان القبلات. طوال النهار كانا يتبادلان القبلات. يكفي، يكفي، إنكما تقدمان مثلاً سيئاً للأطفال. من الأفضل أن تتحدثا أو تغنيا.

فهمس الملازم مشجعاً إياها على مواصلة الكلام:

– لأنه كان يغني جيداً، أليس كذلك؟ وخصوصاً ألحان البوليرو؟

Twitter: @ketab_n

فوافقت المرأة:

– وكذلك الفالسات والتونديرات.

وتنهدت بعمق مما جعل ليتوما يرتعش، ثم تابعتْ:

– وحتى الكومانانا، هذا الغناء الذي يتنافس فيه اثنان. كان يغنيه بصورة رائعة، يا لظرافته.

فذكّرها الملازم:

– وصلت السيارة إلى أموتابي وأنتِ رأيتها. هل ركضا هاربين؟ هل اختبأا؟

– هي أرادته أن يهرب، أن يختبئ. كانت تخيفه قائلة له: اركض يا حبي، اختبئ يا حبي، اركض، اركض، لا تبق هنا، لا أريدك أن...

– لا يا حبيبتي، تذكري أنك قد صرتِ لي، لقد أمضينا ليلتين معاً، إنك امرأتي. لا أحد يستطيع المعارضة الآن. عليهم أن يقبلوا بحبنا. لن أذهب. سأنتظره، وسأتحدث إليه.

وكانت مذعورة جداً. اركض، اركض، سيـ...، قد يفعلون بك لست أدري أي شيء، اهرب، أنا سأتولى مشاغلتهم، لا أريدهم أن يقتلوك يا حبيبي. لقد كانت خائفة جداً مما جعل دونيا لوبي تخاف أيضاً:

– من هم؟ ـ سألتْهما مشيرة إلى السيارة المعفرة بالتراب، وإلى الأشباح التي نزلت منها، قاتمة، بلا وجوه، في مواجهة الأفق الملتهب: ـ من القادم هناك؟ رباه، رباه، ماذا سيحدث.

نفث الملازم سيلفا سلسلة من دوائر الدخان:

– ومن هم الذين جاؤوا يا دونيا لوبي؟

Twitter: @ketab_n

فدمدمت المرأة وهي لا تكاد تفصل ما بين أسنانها، بغضب محاه خوفها:

– ومن سيكونون؟ من سواكم أنتم.

لم يضطرب الملازم سيلفا:

– نحن؟ الحرس الأهلي؟ إنك تعنين الشرطة الجوية، أشخاص من قاعدة تالارا الجوية. أليس كذلك؟

دمدمت المرأة وهي ساهمة:

– أنتم، ذوو الزي العسكري. ألستم الشيء نفسه؟

ابتسم الملازم سيلفا:

فـي الحقيقة لا. ولكن، لا يهم.

وفـي هذه اللحظة، ودون أن ينصرف عن كشوفات دونيا لوبي، رآهما ليتوما، كانا هناك، يحتميان من الشمس تحت سقف الحصير، يجلسان متلاصقين وأصابعهما متشابكة، قبل لحظة من حلول الكارثة. كان هو يميل برأسه ذي التجاعيد السوداء القصيرة على كتف الفتاة ويداعب أذنها بشفتيه، يغني لها: **روحان وحدّهما الله فـي الدنيا، روحان متحابتان، أنا وأنت.** وكانت عيناها تترقرقان تأثراً بحنان الأغنية ورقتها، وهزت كتفيها قليلاً، إما لأنها تريد سماع الغناء بصورة أفضل وإما للتغنج، وقطبت وجهها، وجه الصبية العاشقة. لم يكن هناك من أثر للجفاء ولا للعجرفة في هذه الملامح المراهقة التي جعلها الحب أكثر عذوبة. أحس ليتوما بأن حزناً كئيباً يطغى عليه عند التفاته إلى حيث بدت وتقدمت دون شك سيارة العسكريين، يسبقها صخب محركها، وسط غمامة من الغبار الأصفر، وتجولها في بلدة أموتابي مع

Twitter: @ketab_n

انتصاف النهار، ثم مجيئها بعد دقائق مشؤومة لتتوقف على بعد عدة أمتار من الكوخ نفسه الذي لا باب له، حيث هما موجودان الآن. وفكر: «لا بد أنه كان سعيداً على الأقل خلال اليومين اللذين أمضاهما هنا».

سأل الملازم:

– كانا اثنين فقط؟

وفوجئ ليتوما حين انتبه للمفاجأة التي أصابت رئيسه. وكان يتفادى النظر في عينيه، لإيمانه بخرافة سوداء.

كررت المرأة مرتعدة ومرتابة:

– اثنان فقط.

وأغمضت عينيها، وكأنها تراجع ذاكرتها لتتأكد من أنها لم تخطئ:

– لا أحد سواهما. نزلا كلاهما وبقيت سيارة الجيب فارغة. لأن السيارة كانت سيارة جيب، إنني أراها الآن، لم يكن فيها سوى رجلين، وأنا متأكدة، لماذا يا سيدي؟

فقال الملازم وهو يدوس عقب السيجارة:

– لا شيء. لقد تصورت أن دورية كاملة على الأقل قد خرجت للبحث عنه. ولكن، إذا كنتِ قد رأيت اثنين، فإنهما اثنان. لا مشكلة في هذا. تابعي يا سيدتي.

وقاطع دونيا لوبي نهيق آخر. ارتفع في جو ظهيرة أموتابي الحار، طويلاً، مفعماً بتدرج الارتفاع والانخفاض، عميقاً، مرحاً، عفوياً. وفي الحال، نهض الأطفال الذين كانوا يلعبون وخرجوا، راكضين أو زاحفين، وهم منفجرون بالضحك الخبيث. وفكر ليتوما

Twitter: @ketab_n

بأنهم ذاهبون لرؤية الأتان، ليروا كيف يمتطيها الذكر الذي يجعلها تنهق هكذا.

– هل أنتِ بخير ـ قال لها شبح أكبرهما سناً، شبح من لم يكن يحمل مسدساً في يده: ـ هل ألحق بك مكروهاً؟ أأنت بخير؟

كانت الدنيا قد أظلمت خلال ثوان قصيرة. ففي الوقت القصير الذي استغرقه الرجلان في اجتياز المسافة بين سيارة الجيب والكوخ، كان المساء قد تحول إلى ليل.

وقالت الفتاة دون أن تصرخ، متحدية، وكعباها راسخان على الأرض، وقبضتاها مطبقتان، وذقنها ترتعش:

– إذا ما آذيته في شيء، فسوف أقتل نفسي. إذا فعلتَ له شيئاً سأقتل نفسي. ولكنني سأروي كل شيء للجميع قبل ذلك. وسيموت الجميع قرفاً وخجلاً منك.

كانت دونيا لوبي ترتجف أكثر من ورقة:

– ماذا جرى يا سيدي، من أنتما، وماذا أستطيع أن أقدم لكما، هذا هو بيتي المتواضع. أنا لا أؤذي أحداً، إنني امرأة بائسة.

واقترب الذي كان يحمل السلاح. الشبح الذي كان يقذف لهباً كلما نظر إلى الشاب ـ لأن الأكبر سناً لم يكن ينظر إلا إلى الفتاة ـ، اقترب من دونيا لوبي ووضع المسدس ما بين ثدييها الجافين، وأمرها، ثملاً بالحقد والغضب:

– نحن لسنا هنا، نحن غير موجودين، وإذا فتحت فمك، فستموتين ككلبة مصابة بالسعار. سأقتلك أنا نفسي، مفهوم؟

انهارت هي على ركبتيها. ما الذي فعلته يا سيدي؟ لا شيء، لا شيء، استقبلت شابين طلبا مأوى. بحق الرب وبحق أمه المقدسة

Twitter: @ketab_n

يا سيدي، لا تطلق النار، كيلا تقع أية محنة في أموتابي.

قاطعها الملازم سيلفا:

– أكان الأصغر يدعو الأكبر «سيدي الكولونيل»؟

قالت باستكانة وهي تفكر:

– أنا لا أعرف يا سيدي ـ وكانت تحاول أن تخمن ما الذي يناسبها أن تعرفه: ـ سيدي الكولونيل؟ الأصغر للأكبر سناً؟ ربما نعم وربما لا، أنا لا أذكر ذلك. أنا بائسة وجاهلة يا سيدي، أنا لم أسع إلى شيء من ذلك، إنها المصادفة فقط. قال لي حامل المسدس إن أنا فتحت فمي ورويت ما أرويه الآن، فإنه سيرجع ليطلق رصاصة على رأسي، وأخرى في بطني وأخرى في الأعضاء. ماذا سأفعل، ماذا سأفعل. لقد فقدت زوجي، مزقه جرار. ولديّ ستة أبناء لا أكاد أؤمن الطعام لهم. كانوا ثلاثة عشر وقد مات منهم سبعة. فإذا قتلوني، سيموت الستة الآخرون. هل هذا عدل؟

فألح الملازم:

– هل كان حامل المسدس ضابطاً؟ أكانت توجد على كتفه شريطة حريرية؟ وشعار واحد على قبعته؟

وفكر ليتوما بأن هناك تواردا للخواطر. فرئيسه يوجه الأسئلة التي تدور بخلده هو، كان يترنح ويحس بشيء من الدوار.

عوت المرأة:

– أنا لا أعرف هذه الأمور. لا تشوشني إذن، لا توجه إليّ أسئلة لا أفهمها. ما هو الضابط، ما معنى هذا؟

كان ليتوما يسمعها، لكنه كان يراهم ثانية، بوضوح،رغم الظلال الزرقاء التي تلف أموتابي. السيدة لوبي جاثية تتباكى أمام الأصغر

Twitter: @ketab_n

سناً المحتدم وكثير الإيماءات، هناك عند الحد الفاصل ما بين الكوخ والشارع؛ بينما الأكبر سناً ينظر بمرارة، بألم، بغيظ إلى الفتاة المتحدية التي تحمي النحيل بجسدها ولا تسمح له بالتقدم ولا بالتحدث إلى القادمين الجديدين. كان يرى كيف أن وصول الغريبين قد محا من الشوارع، كما هو حاصل الآن، كل أثر لأطفال وشيوخ، وحتى لكلاب ونعاج أموتابي، ودفنهم في بيوتهم، خشية أن يجدوا أنفسهم متورطين في مشكلة.

– اصمت أنت، لا تتكلم، من تكون أنت، بأي حق، ما الذي تفعله أنت هنا ـ كانت الفتاة تقول لأصغرهما سناً وهي تقف أمامه، تدفعه بقوة وتوقفه، وتمنعه من التقدم والتكلم. وتتابع في الوقت نفسه تهديد شبح الأكبر سناً: ـ سأقتل نفسي وأخبر الجميع بكل شيء.

وكان النحيل يتلعثم:

– إنني أحبها بكل جوارحي، وأنا رجل شريف، سأكرس حياتي لعبادتها وجعلها سعيدة.

ولم يكن قادراً، بالرغم من جهوده، على التخلص من الدرع الذي يشكله جسد الفتاة، والتقدم. ولم يلتفت شبح الأكبر سناً إليه الآن أيضاً؛ بل واصل تركيزه على الفتاة وكأنه لا وجود في أموتابي، ولا في العالم بأسره، لأحد سواها. ولكن ما إن سمعه الأصغر سناً، حتى قام بالالتفات، واندفع نحوه، لاعناً من بين أسنانه، ورافعاً مسدسه كما لو كان سيفرغه في رأسه، فاعترضته الفتاة مقاومة إياه. وحينئذ أمره شبح الأكبر سناً بجفاء وحزم: «اهدأ». فانصاع الآخر في الحال.

Twitter: @ketab_n

سألها الملازم سيلفا:

– قال له «اهدأ» فقط؟ أم قال له «اهدأ يا دوفو»؟ أو «اهدأ يا ضابط دوفو»؟

إن هذا أقرب إلى المعجزة منه إلى توارد الخواطر. فرئيسه يوجه الأسئلة مستخدماً الكلمات نفسها التي كانت تجول في ذهنه.

أقسمت دونيا لوبي:

– أنا لا أعرف. لم أسمع أي اسم. لقد عرفت فقط أن اسمه هو بالومينو موليرو حين رأيت الصور في جريدة «**تيمبو دي بيورا**». لقد تعرفت على صورته هناك بالذات. حطم قلبي يا سيدي. إنه هو، الفتى الذي خطف الفتاة وجاء بها إلى أموتابي. ولم أعرف حينئذ ولست أعرف حتى الآن ما اسمها هي أو ما اسم السيدين اللذين جاءا بحثاً عنهما. ولست أريد معرفة ذلك أيضاً. لا تخبرني به إذا كنت تعرفه، أرجوك. ألست متعاونة معك؟ لا تخبرني إذن بهذه الأسماء!

قال شبح الأكبر سناً:

– لا تخافي، ولا تصرخي، ولا تتحدثي عن هذه الأمور يا بنيتي، يا بنيتي الحبيبة. كيف يمكنك تهديدي؟ أتقتلين نفسك، أنتِ؟

وتحدته الفتاة:

– إذا آذيته بشيء، أو لمست منه إصبعاً.

وفي المساء، وراء حجاب مائل إلى الزرقة، كانت الظلال تصبح أكثر كثافة، وكانت النجوم قد ظهرت. وبدأت بعض القناديل ترتعش ما بين قصب وطين ونوافذ أموتابي.

دمدم شبح الأكبر سناً:

Twitter: @ketab_n

– من الأفضل أن أمد له يدي وأن أقول له من أعماق قلبي: «إني أسامحك».

مدّ يده فعلاً، رغم أنه فعل ذلك دون أن ينظر إليه حتى الآن. وأحست دونيا لوبي بأنها تبعث من جديد. رأتهما يتصافحان. وكان الفتى لا يكاد يقدر على الكلام، كان يختنق بالانفعال:

– أقسم لك، سأفعل كل شيء.. إنها نور حياتي، إنها قدس الأقداس، إنها...

وأمر شبح الأكبر سناً:

– وأنتما أيضاً تصافحا، دون أحقاد. لا رؤساء ولا مرؤوسين. لا شيء من هذا. رجلان فقط، ثلاثة رجال، يسوون أمورهم كأنداد، كما يجب على الرجال أن يفعلوا. هل أنتِ سعيدة الآن؟ هل اطمأنيتِ أخيراً؟ انتهى كل شيء، لقد انقضت لحظة النحس بالنسبة للجميع. والآن، هلموا بنا.

أسرع بإخراج محفظته من جيبه الخلفي. وأحست دونيا لوبي بأنه وضع في يدها بضع أوراق نقدية ملوثة بالعرق، وسمعت صوتاً شهماً يشكرها لتحملها الإزعاج وينصحها بنسيان كل شيء. ثم رأت شبح الأكبر سناً يخرج ويتقدم نحو سيارة الجيب التي ما زالت مفتوحة الأبواب، لكن حامل المسدس رفع سلاحه ثانية إلى صدرها:

– إذا فتحت فمك بكلمة، فأنت تعلمين. تذكري.

– وهل صعد النحيل والفتاة إلى سيارة الجيب هكذا، بانقياد؟ ومضيا معهما؟ ـ لم يكن الملازم ليصدق هذا، بالنظر إلى الملامح التي كانت تبدو على وجهها، كما أن ليتوما لم يصدق أيضاً.

Twitter: @ketab_n

قالت دونيا لوبي:

– لم تكن هي تريد الذهاب. كانت مرتابة وحاولت منعه من الذهاب معهما: فلنبق هنا، لا تصدقه، لا تصدقه.

وكان صوت الأكبر سناً يشجعها من داخل سيارة الجيب:

– هيا، هلموا بسرعة يا بنيتي. ولا تنسي أنه فارٌ من الخدمة. عليه أن يعود. يجب ترتيب هذا الأمر بأسرع ما يمكن، لا بد من تنظيف هذه اللطخة من سجل خدمته. فكري بمستقبله يا بنيتي. هيا، هيا.

وكان الفتى يلح:

– أجل يا حبيبتي، إنه على حق. لقد صفح عنا، هيا بنا، ولنعمل برأيه، فلنصعد، إنني واثق منه. وكيف لا أثق به وأنا أعرف من يكون.

«أعرف من يكون». وأحس ليتوما بدمعة تتدحرج على وجنته حتى طرف شفتيه. كانت مالحة، كقطرة من ماء البحر. وتابع الاستماع، وكأنه يستمع إلى دمدمة بحرية، لصوت دونيا لوبي التي يقاطعها الملازم بين الفينة والفينة. كان قد أدرك بغموض أن السيدة لن تقول شيئاً لم تقله من قبل حول ما جاءا للتقصي عنه. كانت تتحسر لسوء طالعها، ولما سيحدث لها، وتسأل السماء أي ذنب اقترفت لتجد نفسها متورطة في قصة رهيبة كهذه. وكانت تفلت منها إجهاشة أحياناً. ولكن لا شيء مما قالته كان يهم ليتوما. كان يرى بين الحين والآخر، كما في حلم، الشابين السعيدين، يستمتعان بشهر عسلهما السابق لزفافهما في أزقة أموتابي. هو:

Twitter: @ketab_n

تشولو[1] من حي كاستيليا، وهي: بيضاء من أسرة راقية. **لا حواجز أمام الحب**، هذا ما تقوله كلمات أغنية الفالس. وقد كان الأمر حقيقة في هذه الحالة، إذ حطم الحب الأوهام الاجتماعية والعرفية والهوة الاقتصادية. لا بد أن الحب الذي أحس به كل منهما نحو الآخر كان عنيفاً لا كابح له كي يقدما على ما فعلاه. وفكر: «لم أشعر أبداً بحب كهذا. ولا حتى عندما أحببت ميتشيه، حبيبة خوسيفينو». لا، فقد أحب هو في بعض الأحيان، ولكنها كانت نزوات ما تلبث أن تزول بمجرد استسلام المرأة له أو بعد مقاومتها إلى الحد الذي يجعله يعافها. لكنه لم يتصور قط حباً متسلطاً يمكن المجازفة بالحياة في سبيله، مثلما فعل النحيل، أو جديراً بأن يتحدى العالم بأسره من أجله، كما فعلت الفتاة. وفكر: «ربما أنني لم أُخلق لأعرف ما هو الحب الحقيقي. وربما لأني أمضيت حياتي في الذهاب إلى حيث المومسات، فقد أُشبع قلبي وأصبح عاجزاً عن حب امرأة مثل النحيل».

وسمع دونيا لوبي تتوسل:

– ماذا سأفعل الآن يا سيدي؟ انصحني.

كان الملازم واقفاً ويسأل عن ثمن التشيتشية واللحم المقدد، حين قالت المرأة لا شيء، لا شيء. فألح عليها. لا يمكن يا سيدتي، فهو ليس واحداً من رجال الشرطة المحتالين الذين يأكلون على نفقة الآخرين، إنه يدفع ثمن كل ما يستهلكه، سواء أكان في الخدمة أم لا.

رجته دونيا لوبي بكآبة، وقد ضمت يديها وكأنها تصلي:

---

[1]– تشولو : مولد من أب أبيض وأم هندية.

Twitter: @ketab_n

– ولكن، قل لي على الأقل ماذا عليّ أن أفعل الآن. سيقتلونني مثلما قتلوا الشاب المسكين. ألا تدرك هذا؟ لا أعرف إلى أين أذهب، لا مكان لي الجأ إليه. ألم أتعاون معكم مثلما طلبت مني؟ قل لي ماذا أفعل الآن.

فقال الملازم ببشاشة وهو يضع نقود الحساب إلى جانب إبريق التشيتشة الذي شرب منه:

– ابقي هادئة يا دونيا لوبي. لن يقتلك أحد. لن يجيء أحد لإزعاجك. واصلي حياتك المعتادة وانسي ما رأيت وما سمعتِ، وما رويتِه لنا كذلك. إلى اللقاء.

رفع طرف إصبعين من أصابعه إلى واقية قبعته، بحركة وداعٍ من حركاته المعتادة. نهض ليتوما واقفاً على عجل، ولحق به ناسياً أن يودع صاحبة المحل. لقد كان الخروج إلى العراء، وتلقي الشمس العمودية مباشرة، دون غربال الحُصُر والقصب، هو كالدخول في الجحيم. فبعد ثوان قصيرة، أحس بقميصه الخاكي مبللاً وبرأسه يطن. كان الملازم سيلفا يمشي بخفة ظاهرة؛ أما هو فكان حذاؤه ينغرس في الرمل، وكان يمشي بمشقة. سارا في شارع متعرج، الشارع الرئيسي في أموتابي، باتجاه الخلاء والطريق العام. ولدى مرورهما لاحظ ليتوما، عرضاً، العناقيد البشرية وراء نوافذ الأكواخ، وعيون الجيران الفضولية والقلقة. كانوا قد اختفوا جميعهم حين رأوهما يصلان، لخوفهم من الشرطة. وهو متأكد من أنه ما إن يغادر أموتابي مع الملازم، حتى يهرعوا بصخب إلى كوخ دونيا لوبي ليسألوها عما حدث، وعما قالاه وفعلاه. لقد مشيا كثيراً، وكل منهما غارق في أفكاره. كان الملازم يتقدمه بخطوتين أو ثلاث

Twitter: @ketab_n

خطوات. وعند اجتيازهما آخر بيوت الضيعة، خرج كلب أجرب ليكشف لهما عن أسنانه. وعلى الأرض الرملية، كانت تظهر سحالي سريعة وتختفي بين الأحجار. وفكر ليتوما بأن هناك ثعالب أيضاً في هذه البراري. ولا بد أن النحيل والفتاة سمعاها تعوي في الليل خلال اليومين اللذين أمضياهما في أموتابي، حين كانت تقترب جائعة، لتطوف حول حظائر الماعز والدجاج. أكانت الفتاة تشعر بالخوف عند سماعها عواء الثعالب؟ أكانت تحتضنه، مرتعشة، بحثاً عن حماية فيضمها هامساً في أذنها بكلمات عذبة؟ أم أنهما كانا، في حبهما العظيم، يقضيان الليل ذاهلين ومستغرقين، دون أن يسمعا أي صوت من أصوات الدنيا؟ أتراهما مارسا الحب لأول مرة هنا في أموتابي؟ أم أنهما مارساه قبل ذلك، على الرمال التي تحيط بقاعدة بيورا الجوية؟

حين وصلا إلى حافة الطريق العام، كان ليتوما مبللاً من رأسه إلى أخمص قدميه، وكأنه نزل بملابسه إلى ساقية. ورأى بنطال الملازم سيلفا الأخضر وقميصه الكريم مبللين كذلك ببقع كبيرة من العرق، وأن جبهته مرصعة بقطرات العرق أيضاً. لم يريا أية سيارة؛ فهز رئيسه كتفيه علامة الخضوع للقدر، وهمس: «الصبر». أخرج علبة سجائر إنكا، فقدم سيجارة إلى ليتوما وأشعل لنفسه أخرى. دخنا بصمت لهنيهة، بينما الحر يشويهما، وهما ساهمان يراقبان سراب بحيرات وجداول وبحار أمامهما، على الرمل اللامتناهي. ولم تتوقف الشاحنة الأولى التي مرت متوجهة إلى تالارا، رغم الإشارات الهستيرية التي قاما بها كلاهما ملوحين بقبعتيهما.

نظر الملازم بمرارة إلى الشاحنة المبتعدة:

Twitter: @ketab_n

– في مركز خدمتي الأول في أبانكاي، وكنتُ حديث التخرج من مدرسة الضباط، كان لدي رئيس لا يتحمل المزاح، وكان برتبة نقيب. أتعرف يا ليتوما ما الذي كان يفعله في مثل هذه الحالات؟ كان يسحب مسدسه ويفزر العجلات. ألا تراودك نفسك في أن تفعل الشيء نفسه مع هذا السائق التعيس؟

فدمدم المحصن وهو ساه:

– بلى يا سيدي الملازم.

تفحصه الملازم بفضول.

– أنت متأثر جداً بما سمعته؟ أليس هذا صحيحاً؟

فوافق الحارس:

– لم أصدق بعد كل ما قالته السيدة عما جرى في هذا الجُحْر البائس.

قذف الملازم عقب سيجارته إلى الجانب الآخر من الطريق، ومسح جبهته وعنقه بمنديله المبتل. وقال معترفاً:

– أجل، لقد أخبرتنا بأمور رهيبة.

قال ليتوما:

– لم يرد إلى ذهني مطلقاً أن تكون القصة هكذا يا سيدي الملازم. لقد تخيلت أشياء كثيرة، أما هذه فلا.

– أتعني أنك أصبحت تعرف كل ما حدث للنحيل يا ليتوما؟

فتلعثم الحارس:

– حسن. تقريباً يا سيدي ـ ثم أضاف بشيء من الرهبة: ـ وحضرتك لم تعرف؟

قال الضابط:

Twitter: @ketab_n

– أنا لم أعرف حتى الآن. وهذا شيء آخر عليك أن تتعلمه. فلا شيء يأتي بالهين يا ليتوما. الحقائق التي تبدو حقائق دامغة، تصبح نصف حقائق أو لا تعود كذلك إذا أنت قلّبتها كثيراً، وإذا ما نظرت إليها عن قرب.

دمدم ليتوما:

– حسن، أجل بالتأكيد. ولكن أليس كل شيء واضحاً في هذه القضية؟

قال الملازم، دون أي أثر للسخرية في صوته، وكما لو أنه يفكر بصوت عال:

– للوهلةً الأولى، وحتى لو لم تصدق، لست متأكداً تماماً من أن من قتله هما الكولونيل ميندرياو والملازم دوفو. ولكن ما هو ثابت لدي أن هذين الاثنين هما من جاء للبحث عنهما وأخذهما.

فهمس الحارس وهو يرمش:

– سأقول لك شيئاً. ليس هذا هو ما أثر بي. ولكن، أتعرف ماذا؟ لقد عرفت الآن لماذا تجند النحيل متطوعاً في قاعدة تالارا. ليكون قريباً من الفتاة التي يحب. ألا يبدو لك رائعاً إقدام شخص على أمر كهذا؟ مجيء شاب مُعْفى من الخدمة، ليتطوع في سبيل الحب، ليكون قريباً من الأنثى التي أحبها؟

ضحك الملازم سيلفا:

– ولماذا يدهشك ذلك كثيراً.

فألح الحارس:

– إنه خارج عن المألوف، شيء لا يمكن رؤيته كل يوم.

بدأ الملازم يلوح بيديه لسيارة تقترب من بعيد، وسمعه ليتوما

Twitter: @ketab_n

يقول ساخراً:

– أنت لا تعرف إذن ما هو الحب. إنني مستعد للعمل كطيار، وكجندي بلا رتبة، وككاهن، وكجامع قمامة، بل ومستعد لأكل البراز إذا اقتضى الأمر، لأكون قريباً من بدينتي يا ليتوما.

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

– ها هي، ألم أقل لك؟ ها هي قادمة ـ هتف الملازم سيلفا، والمنظار ملتصق تماماً بعينيه. وكان يمط رأسه كما الزرافة: ـ دقيقة في موعدها مثل إنكليزية. أهلاً وسهلاً يا ميمتي. هلمي، تعري لنراك. أنحنِ يا ليتوما، إذا ما رأتنا سترجع على أعقابها.

انسل ليتوما إلى ما وراء الصخرة حيث كانا رابضين منذ نصف ساعة على الأقل. أهي دونيا أدريانا هذه الغمامة البعيدة من الغبار، القادمة من قطاع الشاطئ المسمى بونتا أريناس، أم أن شبقهما يجعلهما يريان أوهام الملازم سيلفا؟ كانا على صخرة السرطانات، وهي مرصد طبيعي على شاطئ صخري راكد المياه، تحميه من رياح الغروب صخرةٌ ناتئة في البحر وعدة مستودعات تابعة لشركة انترناشيونال بتروليوم كومباني. ووراءهما كان الخليج ينفتح بشكل مروحي مع ميناءيه، ومصفاة البترول بأنابيبها وأعمدتها وسلالمها وأبراجها المعدنية المنتصبة، وفوضى القرية. كيف اكتشف الملازم أن دونيا أدريانا تأتي لتستحم هنا، في المساء، حين تصبح الشمس حمراء ويخف الحر بعض الشيء؟ إذ كانت غمامة الغبار هي دونيا

Twitter: @ketab_n

أدريانا فعلاً؛ وقد تعرف الحارس الآن على تقاطيع صاحبة المطعم المتلئة ومشيتها الموزونة.

همس الملازم، دون أن يرفع المنظار عن وجهه:

– هذا أكبر برهان على التقدير قدمته في حياتي لرجل يا ليتوما. سترى الآن مؤخرة بدينتي، ولا أقل من ذلك، والثديين، وبشي من الحظ سترى ما هو أكثر من ذلك. استعد يا ليتوما، لأنك ستموت. ستكون هذه هي هدية عيد ميلادك، صعودك، كم أنت محظوظ يا رجل بعملك مع رئيس مثلي.

كان الملازم سيلفا يتكلم مثل ببغاء منذ وصولهما إلى هنا، لكن ليتوما كان لا يكاد يسمعه، إذ كان اهتمامه منصباً الآن على السرطانات أكثر من اهتمامه بمزاج رئيسه أو بوصول دونيا أدريانا. فالصخرة جديرة حقاً بهذا الاسم: كانت هناك مئات، وربما آلاف السرطانات. كل واحد من هذه الجحور التي في الأرض هو مخبأ لها، وكان ليتوما المفتون يراها تطل مثل بقع ترابية متحركة، وحين تصبح خارج الجحر، تشد نفسها وتنتفخ إلى أن تستعيد شكلها العصي على الفهم، وتبدأ المسير مجانبة، بطريقة متعثرة يستحيل معها معرفة إذا ما كانت تتقدم أم تتقهقر. ففكر: «مثلما هي حالنا في قضية بالومينو موليرو».

أمره رئيسه بصوت خافت:

– انحن، انحن ولا تدعها تراك. يا للروعة، لقد بدأت بالتعري.

وخطر له بأن التل كله مخرم بالأنفاق التي حفرتها فيه السرطانات. وإذا ما تداعت الرابية فجأة؟ سيهوي هو والملازم سيلفا

Twitter: @ketab_n

إلى أعماق مظلمة، رملية، خانقة، مأهولة بحشود من هذه القشريات الحية، المسلحة بالأفكاك الملقطية. سيحتضران احتضاراً كابوسياً قبل أن يهلكا. تلمس الأرض. إنها صلبة لحسن الحظ.

همهم:

– أعرني منظارك إذن. تدعوني لأرى، ثم ترى كل شيء وحدك يا سيدي الملازم.

ابتسم الملازم:

– لسبب ما أنا رئيسك أيها الأبله. ـ ولكنه قدم له المنظار وهو يقول: ـ انظر بسرعة، لا أريد إفسادك.

وضع الحارس المنظار على عينيه وتطلع. رأى دونيا أدريانا، هناك في الأسفل، إلى جوار الصخرة الناتئة، وهي تخلع ثوبها بكل هدوء. أهي تعرف أننا نتلصص عليها؟ أتتوانى هكذا لاستثارة الملازم؟ لا، فلحركاتها مرونة ولا مبالاة من يحس بأنه بعيد عن العيون. كانت قد طوت ثوبها ومالت لتعلقه على صخرة لا تصلها رشقات ماء البحر. وكما قال رئيسه، كانت ترتدي شلحة وردية قصيرة، واستطاع ليتوما رؤية فخذيها الثخينين كجذوع الغار، وثدييها اللذين يبرزان حتى حافة الحلمة.

قال ذاهلاً:

– من كان سيقول إن لدونيا أدريانا، بالرغم من سنوات عمرها، مثل هذه الأشياء الغنية.

فأنبه الملازم وهو ينتزع المنظار منه:

– لا تنظر إليها كثيراً لأنك ستبليها. الحقيقة أن الطيبات تبدأ الآن، في الماء. حين تلتصق الشلحة بالجسد، وتصبح شفافة. وهذا

Twitter: @ketab_n

ليس استعراضاً للحراس يا ليتوما، إنه لرتبة ملازم وما فوق فقط.

ضحك الحارس مجاملة، وليس لأن نكات الملازم كانت تُفرحه. أحس بالقلق والضجر. أيكون ذلك بسبب بالومينو موليرو؟ ربما، فمذ رآه معلقاً، مصلوباً ومحروقاً، في الأرض الحجرية، وهو يشعر بأنه لن يستطيع انتزاعه من مخيلته ولو لحظة واحدة. لقد ظن أول الأمر أنه سيتخلص منه حين يكتشفون القتلة وسبب قتله. أما الآن، وبالرغم من أنهم قد أماطوا اللثام عن السر تقريباً، فإن صورة الفتى ما زالت ترافقه ليلاً ونهاراً. وفكر: «إنك تمرمر حياتي يا نحيل البراز». وقرر أن يطلب من رئيسه إجازة ليذهب إلى بيورا في نهاية الأسبوع. إنه يوم قبض الراتب. سيبحث عن جماعة المنيعين ويدعوهم إلى جولة شراب في حانة تشونغا، وسيقضون الليلة في البيت الأخضر، مع المومسات. فهذا سيريحه راحة عاهرة.

همس الملازم سيلفا:

– إن بدينتي تنتمي إلى عرق راق من النساء. أولئك اللواتي لا يستخدمن سراويل داخلية: تأمل في فضائل انطلاق الأنثى في الحياة بلا سروال داخلي.

قدم له المنظار، وبالرغم من إجهاده لنظره، لم يتمكن ليتوما من رؤية شيء ذي قيمة. كانت دونيا أدريانا تستحم عند الحافة، تضرب الماء وترشه بيديها، ووسط ما تنثره من ماء الأمواج وزبدها، كان ما يمكن رؤيته من جسدها، رغم شفافيه القميص الداخلي، هو مجرد تفاهة.

فأعاد المنظار إلى الملازم شاكياً:

– لا بد أن نظري ليس بقوة نظرك، أو ربما أنني لا أملك قوة

Twitter: @ketab_n

مخيلتك يا سيدي الملازم. الحقيقة أنني لا أرى سوى الزبد.

وهمس الملازم وهو يرفع المنظار إلى عينيه من جديد:

– فلتتخوزق إذن. أما أنا فإنني أراها من أعلى إلى أسفل، ومن أمام إلى وراء. وإن أردت أن تعرف، فأستطيع أن أقول لك إن شعر عانتها أجعد كشعر زنجية. وإذا طلبت مني، أستطيع أن أخبرك كم هو عدد الشعرات، فأنا أراها بوضوح حتى أنني قادر على عدها شعرة شعرة.

– ثم ماذا؟ ـ قال صوت الفتاة من ورائهما.

وقع ليتوما على الأرض جالساً. وفي الوقت نفسه، التفت برأسه بعنف مما سبب له إلتواء في العنق. وحتى وهو يرى أن تفكيره ليس صائباً، فقد بقي على اعتقاده بأن من تكلم ليس امرأة وإنما سرطان.

سألت الفتاة:

– أية قذارات أخرى ستقولان ـ كانت تضع قبضتيها على وركيها مثل مصارع ثيران يؤدي حركة متكبرة: ـ أية سفالات أخرى أكثر مما قلتماه. أتوجد سفالات أكثر في المعجم؟ لقد سمعتها كلها. ورأيت كذلك القذارة التي تفعلان. يا للقرف الذي تثيرانه فيّ.

انحنى الملازم سيلفا ليلتقط المنظار الذي أفلت من يديه عند سماعه صوت الفتاة. وكان ليتوما ما يزال جالساً على الأرض، وفي ذهنه فكرة مبهمة بأنه قد هرس لدى وقوعه قشرة سرطان فارغة، ورأى أن رئيسه لم يستعد السيطرة على نفسه من وقع المفاجأة. كان ينفض الرمل عن بنطاله، ليكسب الوقت. رآه يؤدي حركة اعتذار، وسمعه يقول:

– إنّ مفاجأة السلطات بهذه الطريقة أثناء أداء عملها هو أمر

Twitter: @ketab_n

خطير يا آنسة. ماذا لو أنني أطلقت عليك رصاصة وأنا ألتفت؟

فتحدته بقهقهة ساخرة:

– أثناء أدائك لعملك؟ هل عملك هو التجسس على النساء اللواتي يستحممن؟

حينئذ فقط انتبه ليتوما إلى أنها ابنة الكولونيل ميندرياو. أجل أليسيا ميندرياو. فضرب قلبه صدره. ومن أسفل كان يجيء صوت دونيا أدريانا الغاضب. لقد كشفتهما إذن بفعل الضجة. وكما في حلم، رآها تخرج من الماء زاحفة وتركض منحنية، ومحاولة ستر نفسها، بحثاً عن ثوبها، بينما هي تهز قبضتها باتجاههما متوعدة.

وكررت الفتاة:

– إنكما تسيئان استخدام صلاحياتكما، فضلاً عن كونكما خنزيرين. يا لرجال الشرطة. إنكما أسوأ بكثير مما يقوله الناس عن الشرطة.

فقال الملازم، بقناعة جعلت ليتوما يلتفت إليه فاغراً فاه:

– هذه الصخرة هي مرصد طبيعي لاكتشاف المراكب التي تحمل المهربات من الإكوادور، إن كنت لا تعرفين ذلك يا آنسة. ثم إن الشتائم التي تطلقها سيدة هي زهور في نظر الرجال المحترمين. فخذي راحتك بالسباب إن كان هذا يثيرك.

ولاحظ ليتوما بطرف عينه أن دونيا أدريانا التي ارتدت ملابسها كيفما اتفق، راحت تبتعد عن الشاطئ باتجاه بونتا أرينا، هازة ردفيها بخطواتها النشطة، وكانت ما تزال تشير إليهما بحركات غاضبة وهي مولية ظهرها. لا بد أنها تذكر أميهما كذلك. بقيت الصبية تتأملهما وكأن غضبها وانزعاجها قد تلاشيا. كانت ملوثة

Twitter: @ketab_n

بالتراب من رأسها إلى أخمص قدميها، وكان يستحيل معرفة لون بلوزتها التي بلا أكمام وبنطال رعاة البقر الذي ترتديه، فقد كانا كلاهما، مثلهما كمثل حذائها اللين البسيط والشريطة التي تربط بها شعرها القصير، معفرين بالاصفرار المائل إلى الرمادي، وهو لون الرمال المحيطة بالمكان ذاته. وبدت لليتوما أنحل مما كانت عليه يوم رآها تقاطعهم في مكتب الكولونيل ميندرياو. فهي تبدو بلا صدر تقريباً، وبوركين شديدي الضيق، وكأنها تجسيد لنموذج النساء الذي يطلق عليه رئيسه بازدراء اسم المرأة ـ الصفيحة. فهذا الأنف الصغير المتعجرف الذي يبدو وكأنه يضع ملاحظات على روائح البشر، بدا له أكثر غطرسة من تلك المرة السابقة. كانت تشمهما وكأنهما لم يجتازا الاختبار بعد. أيكون لها من العمر ستة عشر عاماً؟ ثمانية عشر؟

قال الملازم سيلفا بلطف، معتبراً الأمر منتهياً:

– ما الذي تفعله آنسة مثلك بين كل هذه السرطانات.

ثم وضع المنظار في علبته وأخذ يمسح نظارته السوداء بمنديله:

– إنك بعيدة قليلاً عن القاعدة الجوية إن كنتِ تتنزهين. ماذا لو عضتك واحدة من هذه الدويبات؟ ما الذي حدث لك؟ هل انفجرت عجلة دراجتك؟

واكتشف ليتوما وجود دراجة أليسا ميندرياو المعفرة بالغبار أيضاً، على مسافة عشرين متراً إلى أسفل، عند سفح الصخرة. كان الحارس يتأمل الفتاة ويحاول أن يتخيل بالومينو موليرو إلى جانبها. كانا يمسكانِ أحدهما بيد الآخر، ويتبادلان الكلمات العذبة وينظر كل منهما مفتوناً إلى عيني الآخر. هي، ترمش كفراشة، وتهمس في

Twitter: @ketab_n

أذنه: «غن لي، هيا، غن لي شيئاً جميلاً». لا، غير ممكن، من المستحيل تخيلهما هكذا.

قالت بجفاء، وبلهجة حاسمة. وكان وجهها مرفوعاً وعيناها تقدران مدى تأثير كلماتها فيهما:

– أبي يعرف أنكما كنتما تستدرجان ريكاردو ليخبركما بشيء، مستغلين كونه مخموراً، الليلة الماضية.

لم يتأثر الملازم. وضع نظارته السوداء برصانة وبدأ النزول عن الرابية، نحو الطريق، منقاداً في الانحدار للسفح المائل. وفي الأسفل، نفض ملابسه براحته وسأل:

– الملازم ديفو يدعى ريكاردو؟ أنتم تدعونه ريتشارد إذن.

أضافت الفتاة بنوع من السخرية:

– وهو يعرف كذلك أنكما ذهبتما إلى أموتابي، للقيام بتحريات عند السيدة لوبي.

كانت قامتها أقرب إلى القِصر، نحيلة، لا تكاد تلفت الانتباه. ولا يمكن القول إنها جميلة. أيكون بالومينو موليرو قد أحبها لكونها من تكون فقط؟

وتابعت الفتاة:

– إنه يعرف كل ما فعلتماه.

لماذا تتحدث هكذا؟ لماذا تقول الأشياء بهذه الطريقة الغريبة؟ إذ لا يبدو على أليسيا ميندرياو أنها تهددهما، بل إنها تبدو وكأنها تسخر منهما أو تتسلى في دخيلتها، كما لو أنها تقوم بشقاوة. كان ليتوما ينزل الرابية الآن أيضاً، قافزاً وراء الفتاة. وكانت السرطانات تركض بين نعليه في خط متعرج مشوش. ولم يكن هناك أحد في

Twitter: @ketab_n

المنطقة المحيطة كلها. إذ لا بد أن رجال المستودعات قد غادروا كذلك منذ حين، لأن الأبواب كانت موصدة ولم تكن تصدر أية أصوات من الداخل. وهناك في الأسفل، عند الشاطئ، كان زورق جر يشق البحر، بين المينائين، مطلقاً سحابة مجعدة من الدخان الرمادي ومطلقاً صفارته بفواصل متوالية. وكانت توجد مجموعات بشرية دائبة الحركة عند الشاطئ. وصلوا إلى الدرب الذي يقود من الرابية الصخرية إلى السياج الفاصل ما بين منشآت شركة الأنترناشيونال وقرية تالارا. فأمسك الملازم الدراجة وراح يجرها بيد واحدة. كانوا يسيرون متمهلين، وهم في صف واحد. وتحت أقدامهم كانت تصر قشور السرطانات أو سرطان حي وهو يُهرس.

قالت باللهجة الغامضة نفسها التي تجمع بين الغضب والسخرية:

– لقد تبعتكما من المفوضية ولم تنتبها إلى ذلك. وعند السياج، لم يسمحوا لي بالمرور، لكنني هددتهم بأبي فتركوني أمرّ. أما أنتما فلم تشعرا بي. وسمعتكما تقولان كل تلك البذاءات وأنتما هائمان في القمر. ولو أني لم أكلمكما، لكنت ما أزال أتجسس عليكما.

فوافق الملازم وهو يضحك بخفوت. وكان يهز رأسه من جانب إلى آخر محتفلاً بها. وقال معتذراً:

– حين يكون الرجال مع الرجال، فإنهم يتكلمون ببذاءات. لقد جئنا للقيام باستطلاع، لنرى إن كنا نلقي القبض على أحد المهربين. وليس ذنبنا أن هناك بعض العناكب ممن يرغبن في الاستحمام هنا في مثل هذه الساعة. إنها مصادفات الحياة. أليس كذلك يا ليتوما؟

Twitter: @ketab_n

فوافق الحارس:

– أجل يا سيدي الملازم.

وأضاف الملازم جاعلاً صوته كالسكّر:

– نحن رهن إشارتك على أي حال فيما تعرضين يا آنسة ميندرياو. قولي ما تشائين! أم أنك تفضلين الحديث في المركز؟ ففي الظل، وأثناء تناول مرطب مياه غازية يمكن التحدث بصورة أفضل. ولكنني أنبهك إلى أن مفوضيتنا ليست مريحة مثل قاعدة والدك الجوية.

لم تقل الفتاة شيئاً. وبدا لليتوما أنه يسمع سريان الدم في أوردته، بطيئاً، كثيفاً، أحمر قاتماً، ويسمع خفق نبضه وصدغيه. اجتازوا البوابة الحديدية، وحيا الحارسُ المدني المناوب ـ لوثيو تينوكو، من هوانكابامبا ـ الملازم بتحية عسكرية. كان هناك ثلاثة حراس كذلك من جهاز أمن شركة انترناشيونال. وقفوا يتأملون الفتاة مستهجنين رؤيتها معهما. هل شاع في القرية نبأ ذهابهما إلى أموتابي؟ الذنب لا يقع على عاتق ليتوما على أي حال. فقد نفذ بدقة أمر رئيسه بعدم التفوه بكلمة واحدة لأي كان حول ما قالته لهما دونيا لوبي. مروا مقابل مستشفى الشركة ذي الأخشاب البراقة المطلية باللون الأخضر. وعند مقر قيادة الميناء، كان يوجد بحاران يقومان بالحراسة، وبندقيتاهما على الكتف، غمز أحدهما بعينه لليتوما وكأنه يقول له: «أية رفقة هذه». ومرّ سرب من النوارس قريباً جداً، خافقاً أجنحته وزاعقاً. لقد كانت بداية الغروب. ومن خلال سلالم وشرفات الفندق الملكي، وهو الفندق الوحيد في القرية، رأى ليتوما الشمس الآخذة بالغرق في البحر. وكانت برودة لطيفة

Twitter: @ketab_n

ومضيافة تحل محل لهيب النهار.

ولمّح الملازم سيلفا بكياسة:

– هل يعرف الكولونيل ميندرياو بأنك أتيت لزيارتنا؟

فرفعت الفتاة صوتها:

– لا تتصرف كأحمق. إنه لا يعرف بالطبع.

وفكر ليتوما: «الآن سيعرف». جميع الناس كانوا يبدون الدهشة لدى رؤيتهم، ويلاحقونهم بنظراتهم وهم يدمدمون.

وألح الملازم سيلفا:

– أجئت لتقولي لنا فقط إن الكولونيل قد علم بأننا كنا نستدرج الملازم دوفو والسيدة لوبي في أموتابي؟ ـ كان يتكلم ناظراً إلى الأمام، دون أن يلتفت نحو أليسيا ميندرياو، وليتوما الذي تخلف قليلاً، كان يرى أن رأسها يتجه إلى الأمام كذلك، متفادية الالتفات بوجهها نحو الملازم. وسمعها تجيب:

– أجل.

وفكر ليتوما: «إنها تكذب». ما الذي جاءت لتقوله لهما؟ هل بعث بها الكولونيل؟ على أية حال، يبدو أن الأمر ينهكها؛ أو ربما أنها فقدت الحماس. كانت قد قطبت وجهها، وكان فمها مفتوحاً بعض الشيء، وجناحا أنفها المغضن ينبضان بجزع. كانت بشرتها شديدة البياض، ورموشها طويلة جداً. أهذا المزاج الحساس الرقيق، مزاج الطفلة المدللة، هو الذي بعث الجنون في النحيل؟ وليكن ما يكون هذا الذي جاءت تقوله لهما، فقد ندمت ولن تقوله.

دمدم الملازم وقد أصبح قطراً حلواً:

– لطف منك أن تأتي للتحدث معنا. إنني أشكرك حقاً.

Twitter: @ketab_n

ساروا حوالى خمسين متراً أخرى صامتين، يستمعون إلى نعيق النوارس وصوت البحر. وفي أحد البيوت الخشبية، كانت بعض النسوة يفتحن بطون الأسماك وينتزعن أحشاءها بمهارة. وكانت هناك مجموعة من الكلاب تتقافز حولهن مكشرة عن أنيابها، بانتظار الفضلات. وكانت تنبعث رائحة قوية وكريهة.

وسمع نفسه يقول فجأة:

– كيف كان بالومينو موليرو يا آنسة؟ ـ فاقشعر ظهره من المفاجأة، إذ تكلم على نحو مفاجئ ودون تفكير. لكن الملازم والفتاة لم يلتفتا إليه. كان ليتوما يمشي متعثراً على بعد نصف متر وراءهما.

سمعها تقول:

– خبز قربان رباني ـ ثم أضافت بعد توقف قصير: ـ ملاك نازل من السماء.

لم تقل ذلك بصوت مرتعش وملون بالمرارة والشوق. كما أنها لم تقله بحنان. وإنما بتلك النبرة الفريدة ذاتها التي تجمع ما بين البراءة والسخرية، والتي يبرز منها أحياناً وميض غضب.

دمدم ليتوما، حين أخذ الصمت يطول:

– هذا ما يقوله جميع من عرفوه. يقولون إنه كان طيباً جداً.

وبعد لحظة قال الضابط:

لا بد أنكِ تأثرت لموت الفتى يا آنسة أليسيا، أليس كذلك؟

لم تجب أليسيا ميندرياو بشيء. كانوا يجتازون مجموعة من المساكن التي لم ينته بناؤها، فبعضها مازال بلا سقف، وغيرها لم تكتمل جدرانها. وكان لجميع تلك البيوت شرفات مستندة إلى

Twitter: @ketab_n

دعائم، وقد أخذت ألسنة ماء البحر تتغلغل فيما بينها. المد البحري سيبدأ إذن. كان هناك رجال هرمون يجلسون على الأدراج بقمصانهم الداخلية، وأطفال عراة يلتقطون المحار، وجماعات من النساء. وكانت تُسمع قهقهات، وتنبعث رائحة السمك قوية نفاذة.

وسُمع صوت ليتوما يقول:

– لقد قال لي أصدقائي بأنني سمعته يغني مرة في بيورا، منذ زمن بعيد. لكنني، وبالرغم من كل ما حاولته، لم أتذكر ذلك. يقولون إنه كان يغني أغنيات البوليرو بصورة رائعة.

فصححت له الفتاة وهي تهز رأسها بنشاط:

– وكذلك الموسيقى الكريولولية. وكان يعزف الجيتار عزفاً عظيماً أيضاً.

سُمع صوت ليتوما يقول:

– صحيح، الجيتار. لقد كان هاجس والدته دونيا أسونتا، سيدة من كاستييا. إنها تريد استعادة جيتار ابنها. من تراه سرقه؟

– إنه عندي ـ قالت أليسيا ميندرياو. وانقطع صوتها فجأة، وكأنها لم تكن ترغب في قول ما قالته.

بقوا صامتين ثانية لبعض الوقت. كانوا يتقدمون نحو قلب تالارا، وكلما توغلوا في عقدة المساكن، كانوا يجدون مزيداً من الناس في الشارع. ووراء قضبان النوافذ، وعلى قمة صخرة الفنار وفي بونتا أرينا، حيث كانت بيوت الأمريكيين وكبار موظفي شركة الأنترناشيونال، كانت أعمدة النور مضاءة، رغم أن الوقت مازال نهاراً. وكذلك هناك في الأعلى على الجروف، وعند مياه البحر الضحلة، وفي القاعدة الجوية. وفي أحد أطراف الخليج، كانت

Twitter: @ketab_n

ترتفع من برج أحد آبار البترول قنزعة نارية، حمراء وذهبية، تبدو وكأنها سرطان عملاق يبلل قوائمه.

وسُمع صوت ليتوما يقول بخفوت كالعادة:

– السيدة المسكينة تقول: «حين تجدون الجيتار، ستجدون الذين قتلوه». وليس هذا لأن دونيا أسونتا تعرف شيئاً. مجرد حدس أمٍ وامرأة.

أحس بأن الملازم قد عاد ينظر إليه فصمت.

وقالت الفتاة:

– كيف هي؟

لقد التفتت الآن، لثانية واحدة، ورأى الحارس وجهها: كان أعزل، شاحباً، نزقاً، فضولياً.

سألها:

– أتعنين دونيا أسونتا، والدة بالومينو موليرو؟

فأكدت الفتاة ذلك بإيماءة ضجرة وهي تسأل:

– هل هي تشولا[1]؟

بدا لليتوما أن رئيسه قد أفلت ضحكة. وسمع نفسه يقول:

– حسن، إنها امرأة من عامة الشعب، مثل جميع هؤلاء الناس الذين نراهم، مثلي أنا ـ وفوجئ بالنزق الذي كان يتكلم به: ـ طبعاً ليست من طبقتك أو طبقة الكولونيل ميندرياو. أهذا ما كنتِ تودين معرفته؟

---

[1]– تشولو (cholo): المولد من أب أبيض وأم هندية، وتطلق كذلك على الهندي المتحضر.

Twitter: @ketab_n

قالت أليسيا ميندرياو، مرققة نبرة صوتها، وكما لو كانت تكلم نفسها:

– لم يكن يبدو عليه أنه تشولو. وكان شعره ناعماً، بل وأشقر إلى حد ما. وهو أكثر الشبان الذين رأيتهم في حياتي أدباً. فلا ريكاردو، ولا حتى أبي مؤدبان مثله. ما كان أحد سيصدق بأنه تعلم في مدرسة عامة، وأنه كان يقطن حي لاكاستيبا. والشيء التشولو الوحيد فيه هو اسمه هذا، بالومينو، وكنيته الثانية التي كانت أسوأ: تيميستوكليس.

وبدا لليتوما أن رئيسه عاد لإفلات ضحكة مكتومة. أما هو، فلم تكن به رغبة في الضحك من الأشياء التي تقولها الفتاة. كان مشوشاً وساهماً. أتكون حزينة، أم أنها غاضبة لموت النحيل؟ لم تكن هناك من وسيلة لاكتشاف ذلك. فابنة الكولونيل تتكلم كما لو أن بالومينو موليرو لم يمت بتلك الطريقة الوحشية التي يعرفانها، وكما لو أنه مازال حياً. أتكون نصف مخبولة؟

سألها الملازم سيلفا:

– أين تعرفتِ على بالومينو موليرو؟

كانوا قد وصلوا إلى وراء الكنيسة، حيث الجدار الذي يستخدم كشاشة لسينما السيد تيوتونيو كابيه فرياس الجوالة. إنها سينما بلا سقف ولا مقاعد، في العراء. والزبائن الذين يودون مشاهدة الفيلم جلوساً عليهم أن يحملوا مقاعدهم معهم. ولكن معظم أهالي تالارا كانوا يجثون أو يتمددون على الأرض. ولاجتياز الحبل الذي يحد مجال المحل الوهمي، لا بد من دفع خمسة ريالات. أما الملازم وليتوما فكانا معفيين من الدفع. والذين لا يريدون دفع نصف

Twitter: @ketab_n

السول، يمكنهم رؤية الفيلم مجاناً، من خارج الحبل الحاجز، حيث الرؤية من هناك ممكنة، لكنها غير واضحة وتسبب تشنجات في العنق. كان دون تيوتونيو كاييه فرياس يجهز حينئذ جهاز العرض. ولم يكن يملك سوى جهاز واحد، يعمل بفضل وصلة ابتكرها هو نفسه، تحمل التيار الكهربائي من عمود النور الذي عند الناصية. وكان يضطر لقطع العرض بعد انتهاء كل لفافة من الفيلم ريثما يركب اللفافة التالية. فكانت مشاهدة الأفلام تجري بصورة متقطعة مما يجعلها تبدو طويلة جداً. ومع ذلك، كانت السينما تغص بالجمهور دوماً، وخصوصاً في الصيف، وفكر ليتوما: «منذ حادثة النحيل تقريباً لم أشاهد السينما». ما الذي سيعرضونه الليلة؟ فيلم مكسيكي، وإن لم يكن كذلك ففيلم «**نهر خفي**» لدولوريس دل ريو وكولومبا دومينغيث.

قالت الفتاة فجأة، وكان ردها متأخراً إلى حد أن ليتوما نسي عن أي سؤال تجيب:

– في عيد ميلاد لالا ميركادو، هناك في بيورا، كانوا قد تعاقدوا معه ليغني في الحفلة. جميع الفتيات قلن كم هو جميل غناؤه، وكم هو بديع صوته، وكم هو شاب جميل، لا يبدو أنه تشولو. وفعلاً، لم يكن يبدو كذلك.

سألها الملازم:

– هل خصّكِ بأغنية؟ ـ وكان يتكلم بتهذب بالغ. بينما ليتوما يكتشف في كل لحظة تكتيكاً جديداً من تكتيكات رئيسه. وهذا التكتيك الأخير هو استخدام الأساليب الطيبة.

ردت الفتاة بالإيجاب:

Twitter: @ketab_n

– ثلاث أغنيات: «**الليلة الأخيرة معك**»، و«**شعاع القمر**»، و«**الدمية الجميلة**».

«ليست بالفتاة الطبيعية، إنها مخبولة»، فكر ليتوما جازماً. بدأت دراجة أليسيا ميندرياو التي يجرها الملازم سيلفا بيده اليسرى، تصر صريراً جارحاً، يعلو ويتوقف بفواصل منتظمة. وقد أثار هذا الصرير المتواتر أعصاب ليتوما.

أضافت الفتاة:

– ورقصنا معاً رقصة واحدة. لقد رقص مع جميع الفتيات، مرة واحدة مع كل منهن. ومع لالا ميركادو وحدها رقص مرتين. لكنه فعل ذلك لأنها ربة البيت وصاحبة عيد الميلاد المحتفى بها، وليس لأنها أعجبته أكثر. ولم يجد أحد غضاضة في مراقصته لنا، فجميع الفتيات كن راغبات في أن يدعوهن إلى الرقص. كان يتصرف مثل الناس المحترمين. وكان يرقص بشكل جيد.

«الناس المحترمين»، فكر ليتوما، وهو ينحرف كي لا يدوس نجمة بحر جافة ومغطاة بالنمل. أتعتبر أليسيا ميندرياو الملازم سيلفا من الناس المحترمين؟ أما هو فلا تعتبره كذلك بالطبع. وفكر: «إنني تشولو في أربع جنباتي. من حي لامانغاتشيريا، بكل فخر». كانت عيناه نصف مغمضتين، ولم يكن يرى مساء تالارا الذي كان يتراجع الآن أمام الليل بسرعة، وإنما صخب وأبهة الصالة والحديقة، الغاصة بالشبان والفتيات ذوي الملابس الفاخرة، في حي البيض المجاور لمنطقة الرمل حيث حانة لاتشونغا ـ حي بوينس آيرس ـ، في بيت تلك المدعوة لالا ميركادو. هذان اللذان يرقصان في ذلك الركن، وينظران إلى

Twitter: @ketab_n

بعضهما بإمعان، ويتبادلان الحديث بعيونهما، هما أليسيا ميندرياو والنحيل. لا، مستحيل. ومع ذلك كانت تروي الأمر:

– حين دعاني للرقص قال لي إنه لم يكد يراني حتى وقع في هواي – سمعها ليتوما تتكلم. ولم تكن تبدو في صوتها رنة حزن أو كآبة حتى وهي تقول هذا. كانت تتكلم بسرعة وبلا قلب، كما لو أنها تنقل رسالة: ـ قال لي إنه كان يؤمن دوماً بالحب من أول نظرة وهو متأكد الآن من وجوده؛ لأنه أحبني هناك حيث رآني بالذات، وإنني أستطيع أن أضحك منه إذا شئت، ولكن ما يقوله هو الحقيقة، وإنه لن يحب إلى الأبد امرأة أخرى في الدنيا سواي. وقال لي إنه سيستمر حتى الموت في حبه لي حتى لو لم أهتم به، وحتى لو بصقت عليه وعاملته ككلب.

وفكر ليتوما: «هكذا كان إذن». هل الفتاة تبكي؟ لا شيء من هذا. لم يكن بإمكان الشرطي رؤية وجهها ـ فهو ما زال يسير متخلفاً خطوة عن الملازم وعنها ـ لكن صوتها لم يكن منتحباً، وإنما جافاً وواثقاً، وفيه صرامة تامة. وكانت تبدو في الوقت نفسه وكأنها تتكلم عن شخص آخر غيرها، وكأن كل هذا الذي ترويه لا يخصها هي بالذات، وكما لو لم تكن في هذه القصة دماء وموت.

وواصلت بعد توقف قصير:

– قال إنه سيعزف لي سيرنادات، وإنه سيغني لي كل ليلة، حتى يجعلني أحبه.

كان صرير الدراجة يسبب لليتوما تشنجاً لا تفسير له؛ فقد كان يترقب الصرير، وحين يسمعه تسري في جسده قشعريرة. سمع صوت رئيسه، وكان الملازم يزقزق مثل عصفور:

Twitter: @ketab_n

– أهذا ما حدث؟ أهذا ما جرى؟ هل وفى بوعده؟ هل جاء ليعزف السيرنادات عند بيتك، في قاعدة بيورا الجوية؟ وهل انتهيت إلى الوقوع في هواه؟

ردت الفتاة:

– لست أدري.

«لا تدري؟ كيف يمكنها ألا تدري ذلك؟» فكر الحارس. وبحث في ذاكرته عن المرة التي أحب فيها بقوة أكبر. أكان حبه لميتشيه، عشيقة خوسيفينو، تلك الحنطية ذات الجسد المنحوت التي لم يتجرأ يوماً على مصارحتها؟ أجل، إنها هي، كيف يمكن للمرء ألا يعرف إن كان عاشقاً أم لا؟ أية حماقة هذه. إما أنها مخبولة، نصف مجنونة، نصف مغرورة، أو أنها تتعمد التظاهر بالبلاهة لإرباكهما؟ أيكون الكولونيل قد دربها لتفعل هكذا؟ هل فعل ذلك كثيراً؟

قالت الفتاة:

– يومياً. منذ حفلة لالا ميركادو. لم يتخلف يوماً واحداً، إلى أن نقلوا أبي إلى هنا.

كان عدد من الصبيان الذين يحملون المقاليع يقذفون قط الصيني تانغ، صاحب الحانة. وكان القط يموء مرتعباً وهو يذرع سطح الحانة من جانب إلى آخر. ظهر الصيني تانغ من إحدى الزوايا مسلحاً ببندقية، فهرب الصبية ضاحكين.

زقزق الملازم سيلفا:

– وماذا كان يقول أبوك عن تلك السيرنادات؟ ألم يلحظ ذلك قط؟

Twitter: @ketab_n

وردت الفتاة:

– كان أبي يعرف أنه يأتي ليعزف لي السيرنادات، أم أنك تظن أن أبي أصم؟

وبدا لليتوما أن أليسيا ميندرياو قد ترددت للمرة الأولى. كما لو كانت على وشك أن تقول شيئاً ثم ندمت.

كرر رئيسه:

– وماذا كان يقول؟

وأكدت الفتاة بالجدية القاتلة التي تكلمت بها دوماً:

– إنني بالنسبة له دون شك ملكة إنكلترا. وحين أخبرت باليتو بذلك قال لي: «والدك مخطئ. أنت بالنسبة لي أكثر بكثير من ملكة إنكلترا. من الأفضل القول إنك مريم العذراء».

وخيل لليتوما أنه سمع للمرة الثالثة ضحكة الملازم سيلفا الخافتة الساخرة. باليتو؟ أهكذا أعادت تعميد بالومينو؟ أي أن هذا اللقب المضحك، باليتو، هو اسم محترم، وبالومينو أو يتميستوكليس هي أسماء تشولية. وفكر: «اللعنة. يا لهؤلاء البيض من معقدين».

كانوا قد وصلوا إلى موقع الحرس المدني. وكان الحارس المناوب، راميرو ماتيلو، وهو تشيكلاني، قد انصرف دون أن يترك أي خبر، ووجدوا الباب مقفلاً. فأسند الملازم الدراجة إلى الجدار ليفتحه.

ثم قال الضابط راجياً وهو يحني رأسه احتراماً:

– تفضلي واستريحي قليلاً. نستطيع أن نقدم لك مرطباً أو فنجان قهوة. تفضلي يا آنسة.

كان الليل قد خيم. وفي الداخل، وبينما هما يشعلان مصابيح البارافين، بقيا في الظلام للحظة، يصطدمان بالأشياء. وانتظرت

Twitter: @ketab_n

الفتاة ساكنة عند الباب. لا، لم تبك. كان ليتوما يرى ظلها مرسوماً على اللوحة حيث يعلقون الأوامر والمهمات اليومية، وهو يفكر بالنحيل. وكان قلبه مقبوضاً وبه قلق عظيم. وفكر: «لا أستطيع تصديق هذا الذي يحدث». أقالت لهم تلك الصورة الثابتة كل هذا عن بالومينو موليرو؟ إنه يراها، ومع ذلك، فهو يشعر وكأنه لا وجود للفتاة، وكأنها لم تقل شيئاً، وكما لو أن كل هذا ليس سوى أمر يختلقه هو نفسه.

كان الملازم يشعل البريموس، حيث يوجد دوماً إبريق ممتلئ بالماء:

– ألم يتعبكِ المشوار؟ أحضر كرسياً للآنسة يا ليتوما.

جلست أليسيا ميندرياو على حافة الكرسي الذي قدمه لها الحارس. كانت تولي ظهرها إلى الباب الخارجي ومصباح المدخل؛ وكان وجهها ما يزال في الظل تقريباً بينما تحيط بشبحها هالة صفراء. إنها تبدو وهي هكذا أصغر مما هي عليه. أتكون ما زالت تلميذة بعد؟ في أحد البيوت المجاورة كانوا يقلون شيئاً. وكان صوت مخمور يدندن من بعيد شيئاً حول بايتا.

أنَّبه الملازم:

– ما الذي تنتظره لتقدم مرطباً للآنسة يا ليتوما.

أسرع الحارس لإحضار زجاجة باستورينا من السطل المملوء ماء، حيث يضعون الزجاجات لتبقى باردة. فتحها وقدمها إليها معتذراً:

– لا كؤوس لدينا ولا أكواب. عليك أن تشربيها من الزجاجة مباشرة.

Twitter: @ketab_n

تناولت زجاجة الباستيورينا ورفعتها إلى فمها كإنسانة آلية. أهي مخبولة؟ أتتألم في أعماقها ولا تريد إظهار ذلك؟ أيراها غير طبيعية؟ وبدا لليتوما أن الفتاة قد نُوِّمت. كانت تبدو وكأنها لا تدرك أنها معهما هنا ولا تذكر ما قالته لهما. أحس ليتوما بالحرج والضيق. وراوده الهاجس. وماذا لو جاء الكولونيل فجأة إلى الموقع، برفقة دورية، ليحاسبهما على هذه الأحاديث مع ابنته؟

قال الملازم:

– تفضلي، تناولي هذه القهوة أيضاً ـ وقدم لها فنجان الصفيح بعد أن ألقى فيه ملعقة صغيرة من البن: ـ كم ملعقة سكر تريدين؟ واحدة، اثنتان؟

سألت الفتاة بغتة. ولم يحمل صوتها قلقاً وإنما طراوة غضب:

– وماذا سيحدث لوالدي؟ هل سيزجون به في السجن؟ أيعدمونه رمياً بالرصاص لهذا؟

لم تكن قد تناولت الفنجان الصفيحي بعد، ورأى ليتوما رئيسه يرفعه إلى فمه ويتناول منه رشفة طويلة. جلس الملازم مجانبة على إحدى زوايا الطاولة. وفي الخارج كان المخمور قد توقف عن الغناء، وأخذ يتكلم بتنويعات حول الموضوع نفسه الآن، قائلاً إن أسماك الليا في بحر بايتا قد عضته وسببت له قروحاً في قدمه، وإنه يبحث عن امرأة حنون تمتص له السم منها.

فأكد الملازم سيلفا نافياً برأسه:

– لن يحدث شيء لوالدك. ولماذا سيحدث له أي شيء؟ لن يفعلوا شيئاً ضده في الغالب. لا تفكري بهذا أبداً يا آنسة أليسيا. ألا تريدين حقاً فنجاناً من القهوة؟ لقد شربت هذا، لكنني سأُعد لك فنجاناً آخر في الحال.

Twitter: @ketab_n

فكر ليتوما: «إنه يعرف كل الأساليب. وهو قادر على جعل الأبكم يتكلم». كان قد تقهقر جلسة إلى أن استند إلى الجدار. وراح يتأمل، بانحناءة خفيفة، بروفيل وجه الفتاة، وأنفها الوقور، المدقِق، وفهم فجأة دوافع بالومينو: فهي ليست آية في الجمال، ولكن فيها شيئاً غامضاً من الفتنة، هناك شيء في هذا الوجه البارد يمكنه بعث الجنون في رجل. انتابته مشاعر متناقضة. وكان يريد من الملازم أن ينتهي ويجعل أليسيا ميندرياو تقول كل ما تعرفه؛ ولم يكن يعرف في الوقت نفسه، لماذا سيشعر بالأسى إذا ما أفضت لهما هذه الصغيرة بسرها. كان يرى وكأن أليسيا ميندرياو واقعة في شرك. ويشعر برغبة في إنقاذها. أتكون مخبولة حقاً؟

ولّمح الملازم وكأنه يموت أسى:

– ربما كان الغيور هو الذي سيلحق به مكروه. أعني ريكاردو دوفو. أو ريتشارد. أنتم تسمونه ريتشارد، أليس كذلك؟ والغيرة بالطبع عامل مخفف في اعتبار أي قاض يعرف القلب البشري. أما بالنسبة لي فإنني أرى أن الغيرة هي حالة مخففة على الدوام. فأي رجل يحب أنثاه كثيراً هو رجل غيور. أنا أعرف هذا يا آنسة، لأني أعرف ما هو الحب، وأنا غيور كذلك. الغيرة تشوش العقل، ولا تسمح بالتفكير المتعقل، مثلها مثل الخمر. فإذا استطاع عشيقك أن يثبت أنه حين فعل ما فعله ببالومينو موليرو كان معمياً بالغيرة ـ وهذه هي الكلمة المهمة مـ عـ مـ ي، فتذكريها ـ فقد يعتبرونه غير مسؤول عن أعماله لحظة وقوع الجريمة. هذا ممكن بقليل من الحظ ومحامي دفاع جيد. أي أنك يجب ألا تقلقي كثيراً حتى على الغيور يا آنسة ميندرياو.

Twitter: @ketab_n

رفعِ الفنجان الصفيحي إلى فمه ورشف القهوة مثيراً صوتاً صاخباً. وكان ظاهراً على جبهته الأثر الذي تركته حافة القبعة، ولم يكن ليتوما قادراً على رؤية عينيه المختفيتين وراء زجاج نظارته القاتم: كان يرى الشارب والفم والذقن فقط. لقد سأله مرة: «لماذا لا تنزع نظارتك في الظلام يا سيدي الملازم؟» ورد عليه ساخراً: «للتضليل».

همست الفتاة:

– لست قلقة. إنني أكرهه، وأتمنى أن تحلّ به أسوأ المصائب. وأقول له ذلك في وجهه دوماً. لقد خرج في إحدى المرات وعاد حاملاً مسدسه، وقال لي: «هكذا ينطلق، بالضغط هنا. خذيه. وإن كنتِ تكرهينني حقاً إلى هذا الحد، فأنا أستحق أن تقتليني. افعلي ذلك، اقتليني».

خيم صمت طويل، كانت تقطعه فرقعة الزيت في مقلاة البيت المجاور ومونولوج المخمور المشوش الذي كان يبتعد الآن: إذ لا أحد يحبه، وسيذهب إذن لمقابلة ساحرة في اياباكا، وهي ستشفي قدمه الجريحة، آي، آي، آي.

أكد الملازم سيلفا:

– أنا واثق من كونك إنسانة نبيلة القلب، ولن تقتلي أحداً أبداً.

فصعقته أليسيا ميندرياو التي كان فكها يرتعش ولم تعد فتحتا أنفها شديدتي الانفراج:

– لا تجعل من نفسك أبله أكثر مما أنت عليه. ولا تتحامق بمعاملتي وكأنني حمقاء أخرى مثلك. أرجوك. إنني إنسانة راشدة.

سعل الملازم سيلفا:

Twitter: @ketab_n

– أعذريني. لم أكن أعرف ما أقول. فما سمعته منك شوشني. أقول لك بصراحة.

وسُمع صوت ليتوما وهو يقول من بين أسنانه:

– أي أنك لا تعرفين إن كنتِ تحبين بالومينو موليرو. ألم تحبيه إذن، ولو قليلاً من الحب؟

– لقد أحببته بأكثر من قليل من الحب ـ ردت الفتاة بسرعة، دون أن تلتفت لتنظر باتجاه الحارس. كان رأسها ثابتاً، ويبدو أن غضبها قد تبخر بالسرعة التي ولد بها. وكانت تنظر إلى الفراغ: ـ لقد أحببتُ باليتو كثيراً. ولو وجدنا الكاهن لكنت قد تزوجت منه. ولكن هذا الحديث عن الوقوع في الحب مقرف، وما كان بيننا ليس كذلك. لقد كان شيئاً طيباً، أو لنقل إنه كان شيئاً جميلاً. أتراك تتحامق أنت أيضاً؟

– يا لأسئلتك يا ليتوما ـ سمع رئيسه يدمدم. لكنه أدرك أنه لا يؤنبه، وأنه في الواقع لا يوجه حديثه إليه. فالتعليق كان جزءاً من تكتيكه لمواصلة استدراج لسان الصبية: ـ أتظن أن الآنسة كانت ستهرب معه لو لم تكن تحبه؟ أم أنك تظنه اختطفها عنوة؟

لم تقل أليسيا ميندرياو شيئاً. وكانت تحوم وتطن حول مصباح البارافين أعداد متزايدة من الحشرات. وأصبح صوت تيار مياه الشاطئ يُسمع أكثر قرباً الآن. فالمد البحري مازال يتعاظم. لا بد أن الصيادين يعدون شباكهم؛ ولا بد أن دون ماتياس كيريكوتييو ومساعديه يسحبون الآن الزورق **ليون دي تالارا** إلى البحر، أو أنهم أصبحوا يجذفون بعيداً عن الميناء. تمنى لو أنه هناك، معهم، وليس هنا ليسمع هذه الأمور. ومع ذلك، سمع صوته يهمس:

Twitter: @ketab_n

– وماذا عن عشيقك إذن يا آنسة؟

وبدا له وهو يتكلم بأنه يتوازن على حبل متهدل.

وصحح له الملازم:

– تعني عشيقها الرسمي ـ ثم جعل صوته أكثر رقة وهو يتوجه إليها: ـ بما أنك أحببت بالومينو موليرو، فإنني أتصور أن الملازم دوفو ليس سوى هذا: عشيق رسمي، لتغطية المظاهر أمام أبيك. لا شيء سوى هذا، مجرد ستار، أليس كذلك؟

فوافقت الفتاة بحركة من رأسها:

– أجل.

وواصل الملازم سبره:

– كي لا ينتبه أبوك إلى غرامياتك مع بالومينو موليرو. ففي موقع كموقعه، لن يجد الكولونيل أية ظرافة في إقامة ابنته علاقات غرامية مع جندي طيران.

كان طنين الحشرات المصطدمة بالمصابيح يسبب لليتوما تشنجاً كذاك الذي كان يسببه صرير الدراجة من قبل.

– وهل تطوع ليكون قريباً منك فقط؟ ـ سمع نفسه يقول. وانتبه إلى أنه لم يدارِ مشاعره هذه المرة: كان صوته ينضح بالأسى العميق الذي يبعثه النَحيل فيه. فما الذي رآه ذلك الشاب في هذه الفتاة نصف المجنونة؟ ألأنها من أسرة راقية فقط، ولأنها بيضاء؟ أم أنه سُحر بتقلب مزاجها.. بهذه الاختطافات اللامعقولة التي تنقلها في ثوان من الغضب إلى اللامبالاة؟

فكر الملازم بصوت عال، وكان يشعل سيجارة:

– والغيور المسكين لم يكن يعرف شيئاً. وحين بدأ يفهم، أكلته

Twitter: @ketab_n

الغيرة. فأُ ـ عـ ـ مـ ـ ي، أجل يا سيدي. وفعل ما فعل، ثم جاء إليك وقد أفقده الذعر عقله، ليبكي قائلاً: «أنا قاتل يا أليسيا. لقد نكلت بالطيار الذي هربتِ معه وقتلتُه». فزجرته، وقلتِ له إنكِ لم تحبيه يوماً، وإنكِ تكرهينه، حينئذ أحضر مسدسه وقال لك: «اقتليني». لكنك لم تفعلي. وبعد القرون جاءت العصي لريتشارد دوفو. ثم أضاف الكولونيل إلى ذلك أَنْ منعه من مقابلتك. وهذا أمر طبيعي، لأن صهراً قاتلاً سيُلحق به الإهانة مثله مثل تشولو من كاستيبا، وهو جندي طيران كذلك. يا للغيور المسكين! حسن، هذه هي القصة كاملة. هل أخطأتُ في شيء يا آنسة؟

ضحكتْ:

– ها، ها. أخطأتَ في كل شيء.

فوافق الملازم وهو ينفث الدخان:

– لقد أخطأتُ متعمداً. صححي لي إذن.

هل ضحكت هي؟ نعم، ضحكت ضحكة قصيرة، وساخرة بضراوة. إنها جدية الآن ثانية، تجلس متيبسة تماماً على حافة المقعد، وركبتاها متلاصقتان. لقد كانت ذراعاها نحيلتين لدرجة يمكن لليتوما معها أن يحيط بهما بإصبعين من أصابع إحدى يديه. وكانت في شبه الظلام هذا، بجسدها السنبلي النحيل، تبدو لمن يراها وكأنها صبي. ومع ذلك فهي امرأة، وقد عاشرتْ رجلاً. حاول أن يتخيل عريها، وأن يتصورها تمارس الحب مع بالومينو موليرو، مضطجعة على سرير في أموتابي، أو ربما على حصيرة، أو على الرمل، تلف ذراعيها النحيلين حول عنق بالومينو، وتفتح فمها،

Twitter: @ketab_n

ورجليها، متأوهة. ولكن لا، مستحيل. إنه عاجز عن رؤيتها. وفي الصمت اللانهائي، أصبح أزيز الحشرات يبعث على الصمم.

وأضافت الفتاة بسرعة:

– من أحضر المسدس وطلب مني أن أقتله هو أبي. ماذا سيفعلون به؟

فتلعثم الملازم سيلفا متعجلاً، وكأنه قد وقع في ورطة:

– لا شيء. لا أحد سيفعل شيئاً لأبيك.

هتفت:

– تعني أنه لا توجد عدالة. لأنه لا بد من زجه في السجن، أو قتله. ولكن لا أحد يتجرأ. طبعاً، ومن سيتجرأ.

تيبس ليتوما. وكان يشعر بأن رئيسه متوتر أيضاً وجزع، وكأنه يستمع إلى شخير باطن الأرض الذي ينذر بالزلزال.

وقالت الفتاة مستبدلة نبرة صوتها من جديد، لتتكلم الآن بلا دراماتيكية، وكأنها تثرثر مع أصدقاء:

– أريد أن أشرب شيئاً ساخناً، حتى ولو كانت هذه القهوة. لقد أصبت ببرد أو لست أدري بماذا.

ذهل الملازم سيلفا. وكرر مرتين وهو يؤكد بحركة نشيطة من رأسه لا لزوم لها:

– إن الطقس بارد. الطقس بارد، الطقس.

تأخر هنيهة في الوقوف على قدميه، وحين نهض واتجه إلى البريموس، انتبه ليتوما إلى تثاقله وبطئه. كان يتحرك كمخمور. لقد تشوش فعلاً الآن، وليس من قبل. كما كان هو نفسه مذهولاً كذلك لما سمعه للتو، وكان يجهد نفسه في التفكير بالأمر نفسه. أتعني

Twitter: @ketab_n

أنها، بعد كل شيء، ورغم قولها أن الحب مقرف، قد أحبت بالومينو موليرو؟ لقد بعث ذلك فيه البرداء أيضاً. لكم هو جيد تناول فنجان قهوة ساخن كالذي يعدّه رئيسه للفتاة. وعلى مخروط ضوء القنديل الضارب للحمرة، كان ليتوما يرى تثاقل يدي الملازم وهما تسكبان الماء، وتلقيان فيه بملاعق البن والسكر. وكما لو أنه غير واثق من استجابة أصابعه له، تقدم نحو الفتاة ممسكاً الفنجان بين راحتيه، دون إثارة أي ضجة، وقدمه لها. فرفعته أليسيا ميندرياو إلى فمها في الحال وتناولت منه رشفة وهي ترفع رأسها. رأى ليتوما عينيها، في الضوء الخافت المتذبذب. كانتا جافتين، سوداوين، قاسيتين وراشدتين في وجه الطفلة الرقيق هذا.

– تعنين... ـ دمدم الملازم ببطء لم يكد ليتوما يسمعه. وكان قد عاد للجلوس على زاوية طاولته وإحدى ساقيه مستندة إلى الأرض بينما الثانية تنوس معلقة. توقف طويلاً ثم أضاف برهبة: ـ تعنين أن هذا الذي تكرهين، هذا الذي تتمنين له أسوأ المصائب، ليس الملازم دوفو وإنما...

لم يتجرأ على إنهاء عبارته. ورأى ليتوما أن الفتاة تبدي موافقتها دون أي تردد، وسمعها تهتف وقد هاج صوتها بنوبة مفاجئة من نوبات الغضب التي تعتريها:

– إنه يركع مثل كلب ويقبل قدمي. يقول لي إن الحب لا يعرف حدوداً، وإن العالم لا يفهم. ويقول إن الدم ينادي الدم، وإن الحب هو الحب، وإنه سيل يجرف كل شيء. وحين يقول هذه الأشياء، حين يفعل ذلك، حين يبكي ويطلب مني الصفح، أكرهه. أتمنى لو تنزل به شر المصائب.

Twitter: @ketab_n

أسكتها صوت مذياع انطلق بأعلى قوته. كان صوت المذيع متعجلاً وجارحاً ومتداخلاً، ولم يفهم ليتوما كلمة واحدة مما يقوله. ثم حل محله الإيقاع الراقص الدارج «**البوتي**»، الذي كان يدحر رقصة هواراتشا في أفضليات أهالي تالارا.

«انظر هذه الفراخ عند الناصية...

فهي لا تريد مجرد الالتفات نحوي...»

أحس الحارس بنوبة غضب ضد المغني النائي، وضد من أشعل المذياع، وضد «**البوني**» وضد نفسه بالذات. وفكر: «لهذا تقول إنه شيء مقرف. لهذا تفرق بين الحب والوداد». ساد صمت طويل، هيمنت فيه الموسيقى. كانت أليسيا ميندرياو تبدو هادئة من جديد، ناسية غضبها الذي كانت فيه منذ هنيهة. وكان رأسها يتابع ببطء إيقاع «**البوتي**» وينظر إلى الملازم كمن ينتظر شيئاً.

وسمع رئيسه يقول ببطء شديد:

– الآن بالضبط عرفتُ شيئاً.

نهضت الفتاة واقفة:

– سأنصرف. لقد تأخر الوقت.

فأضاف الملازم:

– عرفتُ الآن أنكِ أنتِ التي تركتِ لنا الرسالة المغفلة، هنا على الباب. ونصحتنا فيها بالذهاب إلى أموتابي والاستفسار من دونيا لوبي عما حدث لبالومينو موليرو.

– لا بد أنه يبحث عني في كل مكان ـ قالت الصبية، وكأنها لم تسمع الملازم. واكتشف ليتوما في تورية صوتها تلك النبرة الخبيثة

Twitter: @ketab_n

الساخرة التي كانت ألطف ما فيها، أو أقل ما فيها جفاء. فحين تتكلم هكذا تبدو على حقيقتها: صبية صغيرة، وليس كما كانت منذ لحظة، امرأة راشدة ورهيبة لها وجه وجسد طفلة: ـ سيكون قد بعث إلى السائق، وإلى الطيارين، وإلى بيوت القاعدة، وإلى بيوت الأمريكيين، وإلى النادي والسينما. إنه يرتعب في كل مرة أتأخر فيها. يظن بأنني سأهرب ثانية، ها ها.

– يعني أنك كنتِ أنت. حسن، ومع أن هذا جاء متأخراً قليلاً، فشكراً جزيلاً يا آنسة ميندرياو. فلولا تلك المساعدة الصغيرة، لكنا مازلنا نتخبط.

وتابعت الفتاة:

– المكان الوحيد الذي لن يخطر له أن أكون فيه هو المفوضية. ها ها.

هل ضحكتْ؟ أجل، ضحكتْ. بلا سخرية هذه المرة وبلا إساءة. ضحكة سريعة، ماكرة، كحركة فراشة. إنها مخبولة طبعاً، وماذا ستكون سوى ذلك. لكن الشك كان يعذب ليتوما ويجعله يفكر بجواب معاكس. نعم مخبولة؛ لا، ليست كذلك، إنها تتصنع.

همس الملازم:

– طبعاً، طبعاً ـ ثم سعل ليجلو حنجرته وألقى عقب السيجارة على الأرض وداسه بقدمه: ـ إننا هنا لحماية الناس، وحمايتك أنتِ أكثر من سواك بالطبع، هذا إن كنتِ تطلبين ذلك.

فردت الفتاة:

– لستُ بحاجة لحماية من أحد. أبي يحميني وهو يكفي ويزيد.

Twitter: @ketab_n

مدت إلى الملازم بقوة شديدة الفنجان الصفيحي الذي كانت قد تناولت منه القهوة، فانتثرت بضع قطرات من القهوة المتبقية ولوثت قميص الضابط. فسارع هذا لالتقاط الفنجان. وسألها:

– أتريدين أن نرافقك حتى القاعدة؟

قالت:

– لا، لا أريد.

رآها ليتوما تخرج بسرعة إلى الشارع. وارتسم ظلها في الضوء المبهم المنتشر في الخارج بينما هي تركب الدراجة. رآها تنطلق، محركة البدالة، وسمع ضربة جرس، ورآها تختفي مثيرة صريراً في الشارع الصغير المتعرج وغير المرصوف.

بقي الضابط والحارس في مكانيهما صامتين. كانت الموسيقى قد توقفت الآن، وسُمع صوت المذيع المرعب يهدر ثانية، مثل مدفع رشاش.

همهم ليتوما:

– لو لم يشعلوا هذا المذياع العاهر، لواصلت البنية الكلام. والله أعلم أية أشياء كانت ستقول.

فقاطعه الملازم وهو ينهض. ورآه يضع القبعة:

– إذا لم نسرع، فستتركنا بدينتي بلا طعام. هيا بنا بسرعة يا ليتوما لنملأ البطون. فهذه الأمور تفتح شهيتي. وأنت، ألست كذلك؟

لقد نطق بحماقة، لأن المطعم يبقى مفتوحاً حتى منتصف الليل بينما الساعة الآن لا تكاد تكون الثامنة. لكن ليتوما أدرك أن رئيسه قال هذا لمجرد قول شيء وحسب، وأنه أطلق مداعبة كي لا يبقى

Twitter: @ketab_n

صامتاً، إذ لا بد أنه يشعر بالاستهجان والاضطراب مثله. التقط زجاجة الباستيوريني التي تركتها أليسيا ميندرياو على الأرض وألقى بها في كيس الزجاجات الفارغة التي يأتي مشترو الزجاجات والملابس القديمة من وراو ساليناس لشرائها في نهاية كل أسبوع. خرجا، وأغلقا باب الموقع. وتساءل الملازم من بين أسنانه إلى أين أمر حارس الخدمة بالانتقال، وأنه سيعاقب راميرو ماتيلو الآن بإبقائه في الخدمة يومي السبت والأحد. كان القمر بدراً، وضوء السماء الزرقاء ينير الشارع بوضوح. سارا صامتين، وكانا يردان بحركان من أيديهما ورأسيهما على تحيات المساء التي توجهها إليهما العائلات المتجمعة أمام أبواب البيوت. ومن بعيد، كان يُسمع مكبر الصوت في السينما، وكانت تنطلق منه أصوات مكسيكية، وبكاء امرأة، وكخلفية موسيقية، كان يُسمع هدير البحر.

– لقد أصبحت نصف أبله بعد ما سمعته، أليس كذلك يا ليتوما؟

ووافق الحارس:

– أجل، أصبحت نصف أبله.

– قلت لك إنك ستتعلم في هذا العمل كل أمر يا ليتوما.

– ها هي النبوءة تتحول إلى حقيقة إذن ياسيدي الملازم.

كان في المطعم ستة أشخاص يتناولون طعامهم، وكانوا جميعهم معروفين. تبادلا التحية والسلام معهم، لكن الملازم وليتوما جلسا إلى طاولة قصية. أحضرت لهما دونيا أدريانا حساء بقول وسمك، وبدل أن تضع الطبقين أمامهما بدت وكأنها تلقي بهما على الطاولة، دون

Twitter: @ketab_n

أن ترد على تحية المساء التي طرحاها. كان وجهها ساخطاً. وحين سألها الملازم سيلفا إن كانت مريضة، ولماذا هذا المزاج المعكر، نبحتْ قائلة:

– أيمكنني أن أعرف ما الذي كنت تفعله على صخرة السرطانات هذا المساء يا شقفة متذاكي؟

فرد الملازم سيلفا دون أن يطرف له جفن:

– لقد سري إليّ أن مهربين سيقومون بالإنزال.

– ستدفع يوماً ثمن ظرافاتك هذه كلها، وأنا أحذرك.

ابتسم لها الملازم وهو يزم شفتيه ببذاءة مرسلاً لها قبلة:

– شكراً لهذا التحذير يا ميمتي اللذيذة.

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

قال الملازم سيلفا:

– لقد تصلبت أصابعي، يا للكارثة. حين كنت طالباً في مدرسة الضباط، كنت قادراً على عزف أي لحن بمجرد سماعه. أما الآن فلست قادراً حتى على »الراسبا«، يا للعنة!

وفعلاً، كان يحاول عزف عدة ألحان فتخرج نشازاً دوماً. وكانت الأوتار تصر أحياناً مثل قطط هائجة تتصارع. لم يكن ليتوما يولي رئيسه إلا نصف سمعه، لأنه كان يركز ذهنه على فكرة ثابتة. أية لعنة ستقع بعد تقرير كهذا. كانا على شاطئ الصيادين، بين المرفأين، وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، إذ أن صفارة مصفاة البترول قد انطلقت منذ قليل معلنة عن موعد تبديل وردية العمال. وكانت زوارق كثيرة قد أبحرت قبل وقت قصير، وبينها الليون دي تالارا. ولقد دخن ليتوما والملازم سيلفا سيجارة مع الشيخ ماتياس كيريكوتييو، بينما كان مساعدا هذا الأخير يسحبان الزورق إلى البحر. وكان زوج دونيا أدريانا يريد أن يعرف كذلك إن كان صحيحاً ما يقال في تالارا كلها.

Twitter: @ketab_n

– وما الذي يقال فـي تالارا كلها يا دون ماتياس؟

– إنكما اكتشفتما قتلة بالومينو موليرو.

ورد عليه الملازم سيلفا بالإجابة التي كان يقدمها لكل من يوجه إليه هذا السؤال. (فمنذ الصباح ـ من يدري كيف شاع الخبر ـ والناس يستوقفونهما فـي الشارع ليسألوهما السؤال نفسه).

– لا يمكن قول أي شيء بعد. قريباً سيُعرف الأمر يا دون ماتياس. وأستطيع أن أخبرك أنت مسبقاً بأن الكشف سيكون قريباً جداً.

– عسى أن يكون ذلك صحيحاً أيها الملازم، وأن تأخذ العدالة مجراها ولو مرة واحدة، وألا يكسب الذين يكسبون دائماً.

– ومن هم هؤلاء يا دون ماتياس؟

– ومن سيكونون. أنت تعرفهم جيداً مثلما أعرفهم. الأسماك الكبيرة.

ومضى مترنحاً مثل زورق فـي مياه متحركة، وتسلق مركبه برشاقة. لم يكن يبدو عليه أنه رجل يسعل ويبصق دماً؛ بل بدا متماسكاً ومتين البنية بالنسبة لسنه. ربما كانت قصة مرضه هذه هي من أوهام دونيا أدريانا. أيعرف دون ماتياس أن الملازم سيلفا يسعى للإيقاع بزوجته؟ لم يبدِ ذلك قط. وقد لاحظ ليتوما أن الصياد يعامل رئيسه بلطف دوماً. ربما يفقد الإنسان الغيرة مع مرور السنوات.

فكر الملازم قائلاً وهو يضع الجيتار على ساقيه:

– الأسماك الكبيرة. أتظن أنت أن الأسماك الكبيرة هي التي تركت لنا هذا الجيتار على باب الموقع كهدية؟

Twitter: @ketab_n

فأجاب الحارس:

– لا يا سيدي. إنها ابنة الكولونيل ميندرياو. أنت سمعتها حين قالت لنا إن جيتار النحيل عندها.

ورد الملازم:

– إذا كنت أنت تقول... ولكن هذا لا يقنعني. فأنا لم أر أية رسالة أو بطاقة أو أي شيء يثبت لي أنها هي التي حملت الجيتار إلى الموقع. وليست لدي أدلة كذلك على أن هذا الجيتار هو جيتار بالومينو موليرو.

– أتسخر مني يا سيدي الملازم؟

– لا يا ليتوما. إنني أحاول تسليتك قليلاً. لماذا أنت خائف هكذا؟ لا بد للحارس الأهلي من امتلاك خصيتي ثور يا رجل.

– وأنت مرتعب كذلك يا سيدي الملازم. لا تنكر هذا.

ضحك الضابط دون شهية:

– طبعاً أنا مرتعب. لكنني أداري، ولا يظهر الخوف عليّ. أما أنت فوجهك يثير الأسى. ويبدو لي أنه كلما تجشأتْ بعوضة تشخ أنت في بنطالك.

بقيا صامتين لبعض الوقت، يستمعان إلى قرقعة البحر. لم تكن هناك أمواج، وإنما تموجات عالية جداً. وكان القمر يضيء الليل بطريقة تبدو معها واضحة للعيان تماماً بيوت الأمريكيين وكبار موظفي شركة الأنترناشيونال، هناك عند قمة الرابية، إلى جانب الفنار الذي يومض، وعند سفح التل الذي يغلق الخليج. إن الجميع يتحدثون عن روعة قمر بايتا، ولكن الصحيح أن ليتوما لم ير في حياته قمراً أكثر استدارة وإنارة من هذا الذي هنا. من الخير للناس

Twitter: @ketab_n

أن يتحدثوا عن قمر تالارا، وتخيل النحيل في ليلة كهذه الليلة، يغني على هذا الشاطئ بالذات، وهو محاط بطيارين منفعلين:

أيها القمر القمر
أيها الجلجل
تعال وقل لصينيتي
بربكِ أحبيني...

كان ليتوما والملازم قد ذهبا إلى السينما، وشاهدا فيلماً أرجنتينياً للويس ساندريني، جعل الناس يضحكون كثيراً، أما هما فلم يضحكا. بعد ذلك تبادلا الحديث مع الأب دومينغو، أمام باب الكنيسة. وكان الكاهن يريدهما أن يبعثا إليه بحارس أهلي لإخافة الدنجوانات الذين يدخلون الكنيسة لمضايقة بنات تالارا اللواتي يغنين في الكورال في أيام التدريب. فقد سحبت أمهاتٌ كثيرات بناتهن من الكورال بسبب أولئك الباردين. ووعده الملازم بعمل ذلك، إذا ما وجد لديه حارساً بلا مهمة. وعند عودتهما إلى الموقع، وجدا الجيتار الذي يضعه الملازم الآن على ركبتيه. كان موضوعاً أمام الباب. وكان يمكن لأي عابر سبيل أن يحمله لو أنهما ذهبا إلى المطعم أولاً لتناول الطعام بدل الرجوع إلى المركز. ولم يتوان ليتوما ولو ثانية واحدة عن تفسير معنى وجود الجيتار هناك:

– تريدنا أن نعيده إلى أم النحيل. ربما لانت الفتاة لما رويتهُ لها عن دونيا أسونتا، ولهذا أحضرت الجيتار لنا.

– الأمر كذلك إن كنت تقوله أنت يا ليتوما. أما أنا، فهذا لا يقنعني.

Twitter: @ketab_n

لماذا يصر الملازم على المزاح؟ فليتوما يعرف جيداً أن رئيسه لا يجد رغبة في الضحك، وأنه قلق ومرتاب مثله تماماً مذ بعث ذلك التقرير. والدليل على ذلك وجودهما في هذا المكان، في مثل هذا الوقت. فبعد تناولهما الطعام، اقترح عليه الملازم أن يريضا أرجلهما. وقد جاءا دون أن يتكلما، وكل منهما غارق في مشاغله، حتى وصلا إلى شاطئ الصيادين. رأيا رجال المراكب وهم يعدون الشباك وأدوات الصيد وينطلقون في البحر. ورأيا، في عتمة المياه، أنوار مصابيح من يلقون الشباك بعيداً. وحين بقيا وحيدين، خطر للملازم أن يداعب أوتار جيتار النحيل. ربما أنه لم يستطع عزف أي لحن لمجرد كونه مرتعباً. ولقد كان كذلك بالطبع، رغم أنه يحاول إخفاء خوفه برواية الطرائف. وربما للمرة الأولى منذ بدأ الخدمة تحت أوامره، لم يسمعه الحارس هذه الليلة يذكر بدينة المطعم ولو مرة واحدة. وكان سيسأل رئيسه إن كان يسمح له بحمل الجيتار إلى دونيا أسونتا عند ذهابه إلى بيورا في المرة القادمة »دعني أمنح هذا العزاء لتلك المرأة يا سيدي الملازم» ـ حين انتبه إلى أنهما ليسا وحيدين.

– طابت ليلتكما ـ قال الشبح.

كان قد ظهر فجأة، وكأنه خرج من البحر أو من الهواء. حملق ليتوما دون أن يفلح بقول شيء، مكتفياً بفتح عينيه على اتساعهما. لم يكن يحلم: إنه الكولونيل ميندرياو.

– طابت ليلتك يا سيدي الكولونيل ـ قال الملازم سيلفا وهو ينهض من الحفرة التي كان يجلس فيها. تدحرج الجيتار على الرمل ورأى ليتوما أن رئيسه يقوم بحركة من يده اليمنى ولم ينهيها: وكأنه يمسك المسدس، أو يفك على الأقل زر القراب الذي

Twitter: @ketab_n

يحمله دائماً معلقاً بحزامه، على إليته اليمنى.

قال شبح الكولونيل:

– اجلس. كنت أبحث عنك وراودني إحساس بأن عازف الجيتار الليلي هو أنت.

– كنتُ أرى إن كنت ما أزال أذكر كيف أعزف. ولكنني نسيت العزف في الحقيقة لانعدام الممارسة.

فوافق الشبح وهمس:

– أنت كرجل شرطة أفضل منك كعازف جيتار.

ورد الملازم سيلفا:

– شكراً يا سيدي الكولونيل.

فكر الحارس: «إنه آت لقتلنا». تقدم الكولونيل ميندرياو خطوة نحوهما واحتل وجهه مكاناً أكثر إضاءة بنور القمر. ميّز ليتوما جبهته العريضة، وهاتين الفجوتين العميقتين في الصدغين والشارب المنتظم بالميليمتر. أكان شاحباً إلى هذا الحد في المرتين اللتين رأياه فيهما في مكتبه؟ ربما أن القمر هو الذي أظهره شاحباً هكذا. لم تكن ملامحه ملامح تهديد أو عداء، وإنما هي أقرب إلى اللامبالاة. وكانت لنبرة صوته تلك الغطرسة التي كانت عليها أثناء المقابلة في القاعدة. ماذا سيحدث؟ أحس ليتوما بفجوة في معدته، وفكر: «هذا ما كنا ننتظره».

أضاف الكولونيل:

– بإمكان شرطي جيد فقط الكشف بمثل هذه السرعة عن مقتل ذلك الهارب من الجندية. لم يكد يمر أسبوعان، أليس كذلك أيها الملازم؟

Twitter: @ketab_n

– لنكون دقيقين، هي تسعة عشر يوماً يا سيدي الكولونيل.

لم يرفع ليتوما عينيه لحظة واحدة عن يدي الكولونيل ميندرياو، لكن ضوء القمر لم يكن يصل إليهما. هل مسدسه جاهز للإطلاق؟ أيهدد الملازم لإجباره على نفي ما كتبه في التقرير؟ أيطلق عليه فجأة طلقتين أو ثلاث طلقات؟ وهل سيطلق النار عليه هو أيضاً؟ ربما جاء لإلقاء القبض عليهما. ربما هنالك دورية من شرطة الطيران تطوقهما بينما الكولونيل يشاغلهما بهذا الحوار المخادع. أصاخ سمعه، ونظر فيما حوله. لا أحد يقترب ولا يُسمع أي شيء، باستثناء صوت البحر. ومقابله كان رصيف المرفأ القديم يرتفع وينخفض مع حركة الماء. وكانت النوارس تنام بين حدائده المغطاة بالطحالب، والمرصعة بقواقع لا حصر لها، وبنجوم بحر وسرطانات. لقد كانت المهمة الأولى التي أوكلها إليه رئيسه، بعد قدومه إلى تالارا، هي إخافة الصبية الذين يتسلقون منصة المرفأ عن طريق هذه الحدائد، ليتوازنوا عليه كما في أرجوحة الصعود والهبوط.

كرر الكولونيل كرجع متأخر:

– تسعة عشر يوماً.

كان يتكلم بلا سخرية، وبلا غضب، وببرودة جليدية، وكأنه لا يوجد في كل هذا ما يستحق الاهتمام ولا ما يمكن له أن يؤثر عليه أدنى تأثير، وفي أعماق صوته كان ثمة شيء ـ تبدل، توقف، طريقة في تشديد بعض الحروف، ذكّرت ليتوما بالفتاة. وفكر: «المنيعون محقون، فأنا لم أولد لخوض المخاوف».

وتابع الكولونيل:

Twitter: @ketab_n

– ليس سيئاً على أي حال، فهذه الجرائم لا تُحل أحياناً في سنة. وقد تبقى مجهولة إلى الأبد.

لم يُجب الملازم سيلفا. وخيم صمت طويل، لم يأت أي من الرجال الثلاثة خلاله بحركة. كان رصيف المرفأ يهتز كثيراً: هل هناك صبي يتأرجح؟ كان ليتوما يسمع تنفس الكولونيل، وتنفس رئيسه وتنفسه، وفكر: «لم أشعر في حياتي بمثل هذا الخوف».

– هل تأمل بترقية كمكافأة لك؟ ـ سمع الكولونيل ميندرياو يقول. وخطر له بأن الكولونيل يشعر بالبرد دون شك وهو بهذا القميص ذي الأكمام القصيرة الذي يرتديه الطيارون كلباس رسمي يومي. كان رجلاً قصيراً، ليتوما أطول منه بنصف رأس على الأقل. لم يكن يوجد في أيامه إذن حد أدنى لطول القامة من أجل الدخول إلى المعاهد العسكرية.

– سأتأهل للترقية إلى رتبة نقيب اعتباراً من شهر تموز من السنة القادمة، وليس قبل ذلك يا سيدي الكولونيل. ـ سمع صوت رئيسه يقول. الآن سيرفع الكولونيل يده ويطلق الرصاصة: سينشق رأس الملازم مثل ثمرة بابايا. لكن الكولونيل رفع في هذه اللحظة يده اليمنى، ليمر بها على فمه، ورأى الحارس أنه لا يحمل فيها سلاحاً. لماذا جاء إذن؟ لماذا؟ وتابع الملازم كلامه: ـ ورداً على سؤالك، أقول لا، لا أظن أنهم سيرقونني لأني حللت القضية. وأقول بصراحة، إنني أظن أن هذا قد يجلب لي أوجاع رأس كثيرة يا سيدي الكولونيل.

– وهل أنت واثق من أنك قد كشفت القضية نهائياً؟

لم يكن الشبح يتحرك، وخيل لليتوما بأن الطيار يتكلم دون أن

Twitter: @ketab_n

يفتح شفتيه، بمعدته، كمن يتكلمون من بطونهم.

دمدم الملازم:

– حسن، لا يوجد شيء مؤكد سوى الموت ـ ولم يلحظ في كلمات رئيسه أدنى تردد. وفكر: «إنه يسايره»، كما لو كان هو أيضاً غير مرتبط شخصياً بهذه المحادثة، وكما لو أنها تدور حول أناس آخرين. وجرد الملازم حنجرته بسعلة خفيفة قبل أن يواصل:

ـ لكن، وبالرغم من أن بعض التفاصيل ما تزال مبهمة، إلا أنني أظن أن الأسئلة الثلاثة الحاسمة قد حُلّت: من قتله. كيف قتله. لماذا قتله.

نبح كلب، وراح نباحه البائس والمحموم يتحول إلى عواء كئيب. لقد انحرف الكولونيل، أو أن القمر قد تقدم: إذ أصبح وجهه في الظلام ثانية. وكان الرصيف العائم يرتفع وينخفض. ومخروط الضوء المنبعث من الفنار يكنس المياه، مانحاً إياها لوناً ذهبياً.

وسمعه ليتوما يقول:

– لقد قرأت تقريرك الذي رفعته إلى المسؤولين. قيادة الحرس الأهلي أعلمتْ رؤسائي به. وهؤلاء كانوا من اللياقة بحيث أنهم صوروا نسخة منه وأرسلوها إليّ لأطلع على مضمونه.

لم يضطرب، ولم يتكلم بسرعة أكبر ولا بانفعال أشد من السابق. ورأى ليتوما أن نسمة خفيفة قد بعثرت الشعر الخفيف الذي على رأس الشبح الغارق في الظل؛ فمسده الكولونيل فوراً. بقي الحارس متوتراً ومرتعباً، لكنه استعاد الآن في مخيلته الصورتين الدخيلتين: النحيل وأليسيا ميندرياو. كانت الصبية مشلولة بهول المفاجأة وهي ترى كيف يجبرونه على الصعود بالقوة إلى شاحنة صغيرة زرقاء. ثم

Twitter: @ketab_n

ينطلق المحرك صاخباً. وفي الطريق إلى الأرض الصخرية، يطفئ الطيارون سجائرهم في ذراعي وعنق ووجه بالومينو موليرو متملقين بذلك قائدهم. وحين يسمعونه يصرخ، يطلقون ضحكاتهم وهم يتبادلون الوخزات بمرافقهم. ويلح الملازم دوفو: «فليتألم، ليتألم». ثم يقبل أصابعه فجأة ويقول له: «ستندم على ولادتك، أقسم لك». رأى الملازم سيلفا ينهض عن حافة الحفرة حيث كان يجلس، ويأخذ بتأمل البحر ويداه في جيوبه. ثم سأل دون أن يلتفت:

– أيعني هذا أنهم سيدفنون القضية يا سيدي الكولونيل؟

ردّ الكولونيل ميندرياو بجفاء، وكأن السؤال تافه وسخيف جداً ويضيع له وقتاً هو بحاجة إليه:

– لست أدري.

لكنه ما لبث أن أبدى ارتيابه للتو.

– لا أظن، إذ لا يمكن عمل ذلك وقد وصلت القضية إلى المستوى الذي وصلت إليه. هذا صعب جداً، وسيكون... لست أدري. هذا مرتبط بالسلطات العليا، وليس بي.

وفكر ليتوما: «مرتبط بالأسماك الكبيرة». لماذا يتكلم الكولونيل وكأنه غير مهتم بشيء من هذا؟ لماذا جاء إذن؟

– أريد أن أعرف شيئاً واحداً أيها الملازم ـ ثم توقف صامتاً، وبدا لليتوما أنه رماه بنظرة سريعة، وكأنه يراه الآن فقط ويقرر أنه بإمكانه مواصلة الحديث بحضور هذا السيد لا أحد: ـ هل جاءت ابنتي لتقول لك إنني كنت أستعملها؟ هل قالت لك ذلك؟

ورأى ليتوما أن رئيسه يلتفت إلى الكولونيل دون أن يرفع يديه من جيوبه. ويهمس بإشباع:

Twitter: @ketab_n

– لقد أفهمتنا ذلك... لم تقله بوضوح، ليس بهذه الكلمات ذاتها. ولكنها أفهمتنا أنك... أنها لم تكن بالنسبة إليك ابنة، وإنما امرأة يا سيدي الكولونيل.

ارتبك ارتباكاً رهيباً وذابت الكلمات في فمه. لم يره ليتوما أبداً بمثل هذا الاضطراب. أحس بالأسى عليه وعلى الكولونيل ميندرياو وعلى النحيل وعلى الفتاة. كانت لديه رغبة في البكاء أسى على العالم بأسره، اللعنة. وانتبه إلى أنه يرتعش من رأسه حتى أخمص قدميه. أجل، لقد كشفه خوسيفينو جيداً، فهو مجرد عاطفي خرائي، ولن يتبدل.

قال الكولونيل ميندرياو، لا ليسأل، وإنما ليثبت شيئاً مؤكداً:

– هل قالت لك أيضاً أنني أقبل قدميها؟ وأنني بعد استعمالها أجثو على الأرض متوسلاً إليها الصفح؟

تلعثم الملازم بعبارة لم يفهمها ليتوما، ويمكن أن تكون «أظن ذلك» أو «يبدو لي أنها قالت ذلك». كانت لديه رغبة في الانطلاق راكضاً. آه، فليأت صياد، أو ليحدث أي شيء يضع حداً لهذا المشهد.

واصل الكولونيل بلا كلل. وكان قد خفض صوته الذي صار يبدو متعباً ونائياً:

– وإنني كنت أقدم لها المسدس، وقد أفقدني الندم صوابي، لتقتلني؟

لم يجب الملازم هذه المرة. وساد صمت طويل. كان شبح الطيار متيبساً، وكان رصيف المرفأ القديم يعلو ويهبط متأرجحاً بتموجات البحر. وكان همس البحر أكثر خفوتاً، وكأن المد البحري قد أخذ

Twitter: @ketab_n

بالتراجع. ونعق طائر غير مرئيّ على مقربة منهم.

سأل الملازم:

– أتشعر بالمرض؟

فقال الكولونيل بصرامة، وكأنه يتوجه بكلامه إلى أحد الآن:

– الكلمة بالإنكليزية هي «Delusions». أما بالإسبانية فلا وجود لما يرادفها. لأن delusions تعني، في الوقت ذاته: وهم، تخيل، وخداع أو غش. فالوهم هو غش. تخيل شرير مخادع. ـ تنهد عميقاً، كما لو أنه بقي دون هواء، ومر بيده على فمه ـ لقد بعتُ بيت والديّ لكي آخذ أليسيا إلى نيويورك. وأنفقت ما ادخرته طوال حياتي. بل ورهنت تعويض خدمتي. ففي الولايات المتحدة يشفون جميع أمراض العالم، ويقومون بجميع المعجزات العلمية. أليس هذا ما يقال؟ حسن، إذا كان الأمر كذلك فكل تضحية مبررة لإنقاذ هذه الطفلة، ولإنقاذي أنا أيضاً. لم يشفوها. لكنهم اكتشفوا مرضها على الأقل. إنه delusions لا يمكن علاجه أبداً ولا شفاء منه. بل إنه يتفاقم ويتزايد مع مرور الوقت كالسرطان، ما دام السبب الذي يستثيرها موجوداً. لقد أوضحوا لي ذلك بفظاظة الأمريكيين: مشكلتها تكمن فيك أنت. أنت السبب. فهي تعتبرك مسؤولاً عن موت أمها التي لم تعرفها. كل ما تختلقه، وكل هذه الأشياء الرهيبة التي تدبرها ضدك، وهذا الذي ترويه لراهبات القلب المقدس في ليما، والذي كانت ترويه لراهبات اللورديس في بيورا، ولخالاتها وصديقاتها، من أنك تسيء إليها، وأنك بخيل، وأنك تعذبها، وأنك تقيدها إلى السرير، وأنك تجلدها. إنما تفعله انتقاماً لأمها. لكنك لم تر شيئاً بعد. هَيّئ نفسك لما هو أسوأ بكثير.

Twitter: @ketab_n

لأنها فيما بعد، وعندما تكبر، ستتهمك بأنك حاولت قتلها، واغتصابها، وبأنك قد اغتصبتها. ستتهمك بأشد الأمور هولاً. ولن تنتبه إلى أنها إنما تختلق وتكذب؛ لأنها تصدق أكاذيبها وتعيشها وكأنها الحقيقة دون زيادة أو نقصان. «Delusions»، هكذا يدعى الداء بالإنكليزية. ولا وجود في الإسبانية لكلمة توضح ذلك تماماً.

ساد صمت طويل. وبالكاد كان يُسمع صوت البحر، يهمس خافتاً جداً. وفكر ليتوما: «كلام كثير أسمعه لأول مرة».

وسمع الملازم يقول بنبرة حاسمة وتوقيرية:

– هكذا هو الأمر بكل تأكيد. ولكن... أوهام ابنتك أو جنونها لا يفسر كل شيء، إن سمحت لي. ـ وتوقف في فاصلة طويلة، منتظراً تعليقاً من الكولونيل أو باحثاً عن الكلمات المناسبة: ـ التنكيل بالشاب مثلاً.

أغمض ليتوما عينيه. إنه يراه هناك: يحترق تحت الشمس اللاهبة، في الصحراء الحصوية، وآثار التعذيب تغطيه من شعره حتى باطن قدميه، محاطاً بمعز غير مبالية وكريهة الرائحة، مشنوقاً ومحروقاً بالسجائر، وعصا مدسوسة في مؤخرته. يا للنحيل المسكين.

قال الكولونيل:

– هذه قضية أخرى. ـ لكنه صحح ما قاله فوراً: ـ أجل، لا يفسره. هذا صحيح.

سمع الملازم سيلفا يقول:

– حضرتك وجهت إلي سؤالاً وأنا أجبت. فاسمح لي أن أوجه إليك سؤالاً أيضاً. أكانت هنالك من ضرورة للتنكيل به هكذا؟ وأنا

Twitter: @ketab_n

أسألك بكل بساطة لأني لا أفهم سبباً لذلك.

ورد الكولونيل في الحال:

– وأنا أيضاً. أو لنقل إنني أفهمه الآن. أما في البدء فلم أفهمه. لقد سكر وأسكر رجاله كذلك. فحوّل الخمر والحقد الشيطان البائس إلى سادي. الحقد، الحب الجريح، الشرف المهان. هذه أشياء موجودة حتى ولو كان شرطي لا يعرفها أيها الملازم. كان يبدو لي أنه مجرد شيطان بائس فقط، وليس سادياً. كانت أوامري إليه: طلقة في الرأس، ودفن سري. أما المجزرة السخيفة فبالطبع لا. لم تعد لذلك أية أهمية الآن. فقد حدث ما حدث وعلى كل شخص أن يتحمل مسؤولياته. أنا معتاد دوماً على تحمل مسؤولياتي.

عاد يأخذ نفساً من جديد ويلهث. وسمع ليتوما رئيسه يقول:

– أنت لم تكن حاضراً إذن. الملازم دوفو وحده مع جماعة من مرؤوسيه؟

بدا لليتوما أن الكولونيل يفرقع لسانه، كما لو كان سيبصق. لكنه لم يفعل. وقال ببرود:

– لقد منحته مكافأة العزاء تلك ليشفي بالرصاصة غليل كبريائه الجريح. وقد فاجأني. لم يكن يبدو عليه أنه قادر على كل ذلك. كما فاجأني الجنود الطيارون كذلك. إنهم زملاؤه في نهاية الأمر. ثمة قاع بهيمي في الجميع، مثقفين وغير مثقفين، الجميع. وأعتقد أنه أقوى في الطبقات الدنيا، بين من هم تشولو. إنها مشاعر متضاربة معقدة، ثم يأتي الخمر وتملق القائد ليتكفل بالباقي. لم يكن هناك مبرر لكل تلك القسوة بالطبع. ولست نادماً على شيء، إن كان هذا ما تود معرفته. أرأيت في حياتك جندياً طياراً يختطف

Twitter: @ketab_n

أو يغتصب ابنة قائد قاعدته؟ لكنني كنت سأنجز ذلك بطريقة سريعة ونظيفة. طلقة في الرأس، وانتهى.

فكر الحارس: «هو مريض أيضاً بمرض ابنته. بهذه الأوهام، delusions»

وأحس ليتوما ثانية بأن الملازم ينطق بالأسئلة التي تخطر في ذهنه هو حين سمعه يقول:

– أتقول اغتصبها يا سيدي؟ القول بأنه اختطفها وارد. مع أن الدقة تستدعي القول بأنهما فرا معاً. فقد كانا متحابين ويريدان الزواج. جميع أهالي أموتابي يشهدون بذلك. فأي اغتصاب هذا؟

وبدا لليتوما أنه سمع ثانية فرقعة اللسان المنذرة بالبصاق. وحين تكلم الكولونيل رجع الطاغية الصارم الذي كانه في مكتبه. وأوضح بنفور لاضطراره إلى إيضاح واضح:

– ابنة قائد قاعدة تالارا الجوية لا تعشق طياراً. ابنة الكولونيل ميندرياو لا تعشق عازف جيتار من كاستيبا.

«لقد تعلمتْ منه»، فكر ليتوما. فمن هذا الأب الذي يفترض بأنه شديد الحقد، تعلمت أليسيا ميندرياو عادة التمييز العرقي واحتقار من هم ليسوا بيضاً.

وسمع رئيسه يقول برقة:

– أنا لم أخترع هذا. إنها هي، الآنسة أليسيا، من أخبرتنا به، دون أن نسألها يا سيدي الكولونيل. أخبرتنا بأنهما كانا متحابين، ولو كان الكاهن موجوداً في أموتابي لتزوجا. فهل هذا اغتصاب؟

ورفع الكولونيل ميندرياو صوته لأول مرة هذه الليلة:

– ألم أوضح لك الأمر؟ «Delusions, delusions» تخيلات

Twitter: @ketab_n

خادعة. لم تحبه ولا يمكنها أن تحبه. ألا ترى أنها فعلت ما كانت تفعله دوماً؟ الشيء نفسه حين جاءت لتخبركما بهذا. والشيء نفسه حين كانت تذهب إلى راهبات ألورديس لتريهن جراحاً أحدثتها هي نفسها ببرود، لتسيء إليّ أمامهن. كانت تنتقم بتعذيبي وبجعلي أدفع ثمن موت أمها بأكثر الأمور إيلاماً لي. وكأن... ـ تنهد وشهق ـ وكأن ذلك الموت لم يكن بالصليب الكافي في حياتي. ألا يتسع ذهن الشرطي لفهم هذا؟

وفكر ليتوما: «لا يا ابن العاهرة. إنه لا يتسع». لماذا تعقيد الحياة هكذا؟ ولماذا لا يمكن لأليسيا ميندياو أن تكون قد أحبت ذلك النحيل الذي يعزف الجيتار عزفاً شجياً ويغني بصوت عذب ورومنسي؟ لماذا كان مستحيلاً للحب أن يقوم بين بيضاء وتشولو؟ ولماذا يرى الكولونيل في ذلك الحب مؤامرة ماكرة ضده؟

وسمع الكولونيل يقول بذلك الصوت المبهم الذي يقصيه عنهما وعما يقوله:

– لقد أوضحت ذلك لبالومينو موليرو أيضاً، مثلما أوضحته لك. بيّنت له ذلك بتفاصيل أكثر من التي ذكرتها لك، وبوضوح أكبر. بلا وعيد وبلا أوامر. ليس ككولونيل وطيار، وإنما كرجل لرجل. مانحاً إياه فرصة ليتصرف كرجل شهم، وليكون غير ما هو عليه.

صمت ليمر بيده على فمه مروراً سريعاً كمذبة. ورآهما ليتوما الذي أغمض عينيه: الضابط صارماً ومهذباً، بشاربه المستقيم وعينيه الباردتين، والنحيل محشوراً في بدلة المجند، الجديدة بكل تأكيد، وذات الأزرار اللامعة، وبشعره الحليق حديثاً بكامله تقريباً، وهو يقف متأهباً. كان الأول واثقاً جداً، ضئيلاً ومهيمناً، يتحرك في

Twitter: @ketab_n

مكتبه بينما هو يتكلم، ومن خلفة تبدو مراوح طائرات ومحركاتها. أما الطيار، فكان شاحباً جداً، لا يتجرأ على الحركة قيد أنملة، أو على تحريك رموشه أو فتح فمه أو التنفس.

وانتبه ليتوما إلى أن الكولونيل يقول:

– هذه الصبية ليست كما تبدو في الظاهر. هذه الصبية، رغم أنها تتكلم وتضحك وتفعل مثلما تفعل الصبايا الأخريات، إلا أنها ليست مثلهم. إنها هشة، كزجاج، كزهرة، كمخلوق أعزل. كان بإمكاني أن أقول له: «ممنوع على جندي الطيران أن يرفع عينيه إلى ابنة كولونيل القاعدة؛ ولا يمكن لشاب من كاستييا أن يتطلع لنيل أليسيا مينديرياو، ولو في الحلم. اعرفْ هذا واعلمْ كذلك أنه يتوجب عليك ألا تدنو منها، وألا تنظر إليها، ولا حتى أن تحلم بها، وإلا فإنك ستدفع حياتك ثمناً لتهورك» ولكنني بدلاً من أن أمنعه، أوضحت له، رجلاً لرجل، اعتقاداً مني بأنه يمكن لعازف جيتار من كاستييا أن يكون شخصاً عاقلاً، وأن تكون له بصيرة إنسان محترم. قال لي إنه قد فهم الأمر، وإنه لا يشك بكون أليسيا كذلك، وإنه لن يعود للنظر إليها أو التكلم معها مطلقاً. وفي تلك الليلة بالذات، اختطفها هذا التشولو المنافق واستعملها. ظن أنه يضعني بذلك بين الجدار والسيف. يا للمسكين. انتهى الأمر، لقد اغتصبتها، وعليك أن تذعن وتوافق على زواجنا. لا أيها الفتى، يمكن لابنتي، لهذه البنية المريضة، أن تمارس عليّ كل أشكال الابتزاز، وكل أنواع الفضائح ولا مفر لي سوى حمل هذا الصليب الذي فرضه الله عليّ. هي نعم، وأنا مستعد لها... أما أنت، أنت أيها البائس الحقير.

Twitter: @ketab_n

صمت، أخذ نفساً عميقاً، شهق. وفجأة ماءَ قطٌ من مكان ما. وسُمع عدو قوائم كثيرة. بعد ذلك ساد الصمت الممزوج بصوت البحر المتوافق ثانية. وكان رصيف الميناء قد توقف عن التأرجح. وسمع ليتوما رئيسه يوجه السؤال نفسه الذي كان ينهش لسانه هو:

– ولماذا إذن ريكاردو دوفو؟ لماذا يمكنه هو أن يكون عشيق أليسيا ميندرياو وخطيبها؟

فانطلق الكولونيل، وكأنه سئم أن يكون العالم أعمى لدرجة أنه لا يرى ضوء الشمس:

– لأن ريكاردو دوفو ليس بالساق المنتوفة من كاستييا، وإنما هو ضابط. رجل من عائلة محترمة. ثم إنه ضعيف الشخصية وأحمق. فمع الشيطان البائس ريكاردو دوفو أستطيع مواصلة العناية بها وحمايتها. كما أقسمت لأمها أن أفعل وهي تموت. والله وميرثيدس يعرفان أنني وفيت بوعدي، رغم كل ما كلفني ذلك.

غاب صوته وسعل عدة مرات، مسيطراً على هذا الضعف الذي لا سبيل إلى قهره. وفي البعيد، كانت عدة قطط تموء وتصرخ بجنون: أهي تتصارع أم تتعاشر؟ اللعنة، كل شيء في الدنيا مشوش.

قطع الكولونيل الحديث بجفاء:

– لكنني لم أجئ لشيءٍ من هذا كله ولن أواصل الحديث عن أسرتي معك. ـ ثم استبدل صوته ثانية بنبرة أكثر رقة: ـ كما إنني لا أريد تبديد المزيد من وقتك أيها الملازم.

وفكر ليتوما: «أنا لست موجوداً بالنسبة له». هذا أفضل: إذ كان يشعر أنه في أمان أكثر حين يعلم أن الكولونيل ينساه ويلغيه.

Twitter: @ketab_n

ساد صمت لانهائي بدا الطيار أثناءه وكأنه يناضل ضد الخرس، محاولاً النطق ببعض الكلمات المتمردة والهاربة.

وقال الملازم سيلفا:

– إنك لا تبدد لي الوقت.

فنطق أخيراً بمشقة:

– أشكر لك عدم إتيانك على ذكر هذه القضية في التقرير.

وسمع الملازم يدمدم:

– هل تعني قضية ابنتك؟ وما لمّحتْ به إلينا عن أنك كنت تستعملها؟

وكرر والد أليسيا ميندرياو بصوت أكثر ثقة:

– أشكر لك عدم ذكرك هذا الأمر في التقرير. ـ مر بيده على فمه وأضاف: ـ ليس من أجلي، وإنما من أجل الصغيرة. فهذا... كان ستحول إلى وليمة حافلة للصحافيين. إنني أرى عناوين الصحف.. أرى كل قيح ونتانة الصحافة تنهمر علينا. ـ سعل، وشهق واجتهد ليبدو جدياً قبل أن يدمدم: ـ لا بد دوماً من حماية صبية دون سن الرشد من الفضائح بأي ثمن.

سمع ليتوما الملازم يقول:

– عليّ أن أنبهك إلى شيء يا سيدي الكولونيل. لم أذكر القضية لأنها كانت غامضة، ولأنها ضئيلة الارتباط كذلك بمسألة اغتيال بالومينو موليرو. ولكن لا تتوهم. فحين تُنشر القضية، إن كانت ستُنشر، فكل شيء يعتمد على ما ستقوله ابنتك. سيتهمونها، وسيطاردونها ليلاً ونهاراً ليحصلوا منها على تصريحات. وكلما كانت هذه التصريحات قذرة وفضائحية، فسيتغلونها أكثر. حضرتك

Twitter: @ketab_n

تعرف. وإذا كانت كما تقول حضرتك، مريضة بالوهم، أقلت إنه يدعى «delusions»؟ فمن الأفضل نقلها إلى مصحة، أو ربما إلى خارج البلاد. ومعذرة لأني أتدخل في أمر لا يخصني.

صمتَ لأن شبح الكولونيل قام بحركة تشير إلى نفاد الصبر. وقال واضعاً حداً للمحادثة:

– بما أنني لم أكن متأكداً من أني سأجدك، فقد تركت لك رسالة في الموقع، دسستها من تحت الباب.

قال الملازم سيلفا:

– حسن يا سيدي الكولونيل.

ووجه الكولونيل تحية وداع حاسمة:

– ليلة سعيدة.

لكنه لم ينصرف. رآه ليتوما وهو يدور على عقبيه ويمشي بضع خطوات باتجاه الشاطئ، ويقف هناك، وجهه إلى البحر، ويبقى ثابتاً مقابل السطح الفسيح الذي يلونه ضوء القمر بلون فضي متقطع. كان مخروط النور المنبعث من الفنار يذهب ويجيء، كاشفاً لدى مروره مقابلهما، ولمدة ثانية واحدة، عن الشبح الضئيل المتغطرس، المتشح بملابس خاكية، والذي يوليهما ظهره، منتظراً انصرافهما. نظر إلى الملازم، ونظر هذا إليه حائراً. وأخيراً، أشار إليهما بأن ينصرفا. فانطلقا بالمسير دون أن ينطقا بكلمة واحدة. كان الرمل يكتم صوت خطواتهما، وكان ليتوما يحس بحذائه يغوص. مرا بجوار ظهر الكولونيل الساكن ـ كان الهواء يبعثر ثانية شعره الخفيف ـ واتجها ما بين الزوارق المركونة على الشاطئ نحو البقع الداكنة التي تشكلها بيوت تالارا. وحين أصبحا في القرية، التفت

Twitter: @ketab_n

ليتوما لينظر إلى الشاطئ. وبدا له أن شبح الكولونيل مازال في مكانه، عند حافة البحر تماماً، كظل أوضح قليلاً من الظلال المحيطة. وبعيداً عنه، كانت تتلألأ نقاط صغيرة صفراء، منثورة في الأفق. أي واحد من مصابيح البحر تلك هو مصباح زورق زوج دونيا أدريانا؟ وبالرغم من أن الطقس كان دافئاً هنا، إلا أن دون ماتياس يقول إن الطقس في عرض البحر أكثر برودة دوماً، وإن هذا السبب، وليس الملل أو الإدمان، هو ما يجعل الصيادين يحملون معهم دائماً زجاجة من خمر البيسكو أو الغانياثو ليتحملوا ليل البحر.

كانت تالارا مقفرة وخامدة. لم يكن يظهر نور في أي من البيوت الصغيرة التي خلّفاها وراءهما. كانت في ذهن ليتوما أشياء كثيرة يود الاستفهام عنها ومناقشتها، لكنه لم يتجرأ على فتح فمه، يشله إحساس غامض من الحيرة والكآبة. أيكون ما رواه لهما صحيحاً أم تراه اختلقه؟ ربما هو صحيح. لهذا بدت له الفتاة مخبولة، ولم يكن مخطئاً في ذلك. كان ينظر بين حين وآخر، خفية، إلى الملازم سيلفا: إنه يحمل الجيتار على كتفه كما لو كان بندقية أو فأساً، ويبدو ساهماً، وساهياً. كيف يستطيع الرؤية في الظلام وهو يضع هذه النظارة السوداء؟

حين دوت الفرقعة، قفز ليتوما في اللحظة نفسها، وكأنه كان ينتظرها. لقد حطمتْ الصمت، وكانت قصيرة وفظة، ومنطفئة الصدى. أما الآن فقد عاد كل شيء صامتاً وساكناً. بقي واقفاً بلا حراك، والتفت ثانية إلى رئيسه. كان هذا الأخير قد عاود المشي بعد أن توقف لحظة.

ركض ليتوما ليلحق به:

Twitter: @ketab_n

– ولكن، ألم تسمع يا سيدي الملازم؟

واصل الضابط المسير، ونظره إلى الأمام. وحثّ الخُطى:

– سمعت أي شيء يا ليتوما؟

كان ليتوما يركض إلى جانبه مذهولاً:

– العيار الناري يا سيدي الملازم. هناك على الشاطئ. ألم تسمعه؟

قال رئيسه بلهجة مؤنبة:

– لقد سمعتُ دوياً يمكن له أن يكون ألف شيء يا ليتوما. قد يكون ضراط سكير، أو تجشؤ حوت. أو ألف شيء آخر. لا يوجد لدي دليل على أن هذا الدوي هو صوت عيار ناري.

كان قلب ليتوما يخفق بشدة في صدره. بدأ جسده يتعرق، وأحس أن قميصه مبلل، ووجهه كذلك. كان يمشي إلى جانب الملازم ذاهلاً، متعثراً، دون أن يفقه شيئاً. وبعد أن اجتازا بضعة أمتار، سأل وهو يشعر بدوار:

– ألن تذهب لرؤيته إذن؟

– لنرى أي شيء يا ليتوما؟

فتلعثم:

– لنرى إن كان الكولونيل ميندرياو قد انتحر يا سيدي الملازم. ألم يكن هذا هو سبب العيار الناري الذي سمعناه؟

قال الملازم سيلفا مشفقاً على جهله:

– ستعرف ذلك يا ليتوما. سنعرف إن كان كذلك أم لا. كم أنت متسرع. انتظر إلى أن يأتي أحد، صياد ما، متسكع، أحدٌ يجده، ويأتينا بالخبر إذا كان هذا السيد قد انتحر حقاً مثلما خطر لك. أو

Twitter: @ketab_n

انتظر حتى نصل إلى الموقع، فقد يتضح هناك السر الذي يقلقك. ألم تسمع الكولونيل يقول إنه ترك لنا رسالة؟

لم يقل ليتوما شيئاً، وواصل السير إلى جانب رئيسه. ومن أحد الأزقة الجانبية المعفرة خرجت حشرجة آلية، كما لو أن أحداً يضبط مؤشر مذياع. وعلى شرفة الفندق الملكي، كان هناك حارس يغفو وساقاه متدليتان، وهو مغطى ببطانية ورأسه مستند إلى الحاجز.

تمتم أخيراً وهما في شارع الموقع:

– تعني أنك تعتقد بأن هذه الرسالة هي وصيته يا سيدي الملازم؟ وأنه بحث عنا وهو واع أنه سينتحر بعد أن يتحدث معنا؟

تنهد رئيسه:

– اللعنة كم أنت بطيء الفهم يا بني ـ وربت على ذراعه مشجعاً إياه:– لحسن الحظ أنك تفهم الأمور أخيراً، رغم ما يكلفك ذلك من مشقة. أليس كذلك يا ليتوما؟

لم يتبادلا مزيداً من الكلام إلى أن وصلا إلى البيت المتداعي ومنزوع الطلاء الذي هو المفوضية. كان الملازم يبعث الإخطار إثر الإخطار إلى المديرية العامة للحرس الأهلي، موضحاً لهم بأنهم إن لم يفعلوا شيئاً سريعاً، فسينهار السقف على رؤوسهم، وأن الزنازين منخورة وأشبه بالمصافي وأن السجناء يبقون فيها ولا يهربون بدافع الشفقة والتهذب، فقد كانت أخشاب الجدران منخورة أو مقروضة بأسنان الجرذان. وكانوا يردون عليه بأنهم ربما يخصصون له حصة في الميزانية القادمة.

حجبت غيمةٌ القمر، واضطر الملازم لإشعال عود ثقاب ليجد

Twitter: @ketab_n

القفل. وماحك لبرهة، كالعادة، قبل أن يدوّر المفتاح. أشعل عود ثقاب آخر، وبحث على الأرضية الخشبية، عند العتبة أولاً، ثم نحو الداخل بعد ذلك، إلى أن أحرق اللهب أطراف أصابعه، فنفخ عليه وهو يطلق اللعنات. هرع ليتوما لإشعال قنديل البارافين؛ وفعل ذلك باضطراب كبير جعله يشعر وكأنه استغرق قرناً. وعلا اللهب أخيراً: لساناً أحمر ذا قلب مائل إلى الزرقة، ارتعش متمايلاً لبضع ثوان قبل أن ينتصب متهدلاً. كان المغلف محشوراً في فجوة بين أخشاب الأرضية ورأى ليتوما رئيسه وهو ينحني ويتناوله وينهض به برفق شديد، كما لو كان شيئاً حساساً وثميناً. حدس جميع الحركات التي سيقوم بها، والتي قام بها الملازم فعلاً: إلقاء القبعة إلى الوراء، نزع النظارة والجلوس على زاوية الطاولة، وساقاه مفتوحتان جيداً، بينما هو يفتح المغلف، بعناية دائماً، ويسحب بإصبعين من أصابعه الورقة البيضاء، شبه الشفافة. لمح ليتوما بضعة سطور من الخط المتشابه الذي يغطي الصفحة كلها. قرّب القنديل بحيث يتمكن رئيسه من القراءة دون صعوبة. ورأى، والشوق يملأه، أن عيني الملازم تتحركان ببطء من اليسار إلى اليمين، ثم من اليسار إلى اليمين، وأن وجهه يكتسي شيئاً فشيئاً بتعابير سخط أو حيرة، أو بكليهما معاً.

وحين ظن أن الضابط قد انتهى من القراءة، سأله:

– ماذا يا سيدي الملازم؟

وسمع رئيسه يقول:

– اللعنة ـ في اللحظة نفسها التي أنزل فيها يده، وبقيت الورقة البيضاء متدلية على مستوى الركبة.

Twitter: @ketab_n

ألح ليتوما وهو يمد ذراعه:

– هل انتحر؟ أتسمح لي برؤيتها يا سيدي الملازم؟

فدمدم رئيسه وهو يعطيه الورقة:

– لقد فعلها العاهر ـ سارع ليتوما لالتقاطها، وبينما هو يقرأها، بين مصدق وغير مصدق، فاهم وغير فاهم، سمع الملازم يضيف:

ـ لم ينتحر فقط يا ليتوما، بل إن العاهر قتل الفتاة أيضاً.

رفع ليتوما رأسه ونظر إلى رئيسه، دون أن يعرف ما الذي عليه أن يقوله أو يفعله. كان القنديل في يده اليسرى، ولا شك أن هذه الظلال التي تتطاول وتتمايل تعني أنه كان يرتعش. شوهت تكشيرةٌ وجه الملازم، ورآه ليتوما يرمش ويغمض أجفانه وكأن ضوءاً جارحاً يبهره.

تلعثم وهو يشعر بأنه قد أذنب في شيء:

– ما الذي سنفعله الآن. هل نذهب إلى القاعدة أم إلى بيت الكولونيل، أم لنرى إن كان قد قتل الفتاة حقاً؟

قال له الملازم مؤنباً:

– أوتظن أن هذا قد لا يكون صحيحاً يا ليتوما؟

فرد الحارس:

– لست أدري. أو بالأحرى نعم، أظن أنه قد قتلها فعلاً. ولهذا كان يبدو غريباً على الشاطئ. وأظن كذلك بأنه قد قتل نفسه، وفعل هذا بالعيار الناري الذي سمعنا صوته. يا لأمه العاهرة.

وقال الملازم سيلفا بعد لحظات:

– معك حق: يا لأمه العاهرة.

بقيا صامتين وساكنين لبرهة، بين هذه الظلال التي تتراقص

Twitter: @ketab_n

على الجـدران، وعلى الأرض، وعلى أثاث وأمتعة الموقـع المبعثرة دون ترتيب.

وكرر ليتوما أخيراً:

– ما الذي سنفعله الآن يا سيدي الملازم؟

– لا أعرف ما الذي ستفعله أنت ـ قال الضابط وهو ينهض واقفاً فجأة، كما لو أنه تذكر أمراً مستعجلاً. وبدا وكأنه يتمتع بطاقة عنيفة من النشاط: ـ لكنني أنصحك بألا تفعل شيئاً الآن، اللهم إلا الذهاب للنوم، إلى أن يأتي أحد لإيقاظك وإعلامك بخبر هذين الميتين.

رآه يتجه بحزم نحو ظلال الشارع، بحركاته المعهودة: يركز جعبة الخرطوش التي يثبتها على وسطه، متدلية من الحزام، ويضع نظارته السوداء.

تلعثم مرتعداً، وهو يدرك الجواب الذي سيتلقاه:

– إلى أين أنت ذاهب يا سيدي الملازم؟

فسمعه يقول وهو يختفي:

– لمضاجعة بدينة الخراء هذه والانتهاء منها.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

ضحكت دونيا أدريانا مجدداً وبدا لليتوما أنه بينما تالارا بأسرها تَنِمُّ، أو تتباكى أو تتأمل في الأحداث الكبيرة التي وقعت، فإن صاحبة المطعم الصغير لا تفعل شيئاً سوى الضحك. وقد كانت على هذه الحال منذ ثلاثة أيام. فهكذا استقبلتهما وودعتهما في موعد الفطور والغداء والعشاء قبل أمس الأول، ويوم أمس الأول، وأمس واليوم: بالقهقهة الرنانة الصافية. أما الملازم سيلفا فكان ساخطاً ومتبرماً، وكأنه قد أكل أكبر ديك رومي في حياته. وفكر ليتوما للمرة الخامسة عشرة خلال ثلاثة أيام: «أية لعنة حدثت بين هذين الاثنين؟». دوت نواقيس الأب دومينغو في أرجاء القرية، داعية إلى القداس. فرسمت دونيا أدريانا إشارة الصليب دون أن تتوقف عن الضحك.

تنحنح دون خيرونيمو:

– وماذا تظنهم سيفعلون بهذا الملازم دوفو؟

كان هناك في المطعم عند الغداء، فضلاً عن سائق التكسي الوحيد في تالارا والملازم سيلفا وليتوما، زوجان شابان جاءا من ثوريتوس لحضور حفل تعميد.

Twitter: @ketab_n

فرد الملازم سيلفا بامتعاض، ودون أن يرفع عينيه عن طبقه:

– ستحاكمه محكمة خاصة. يعني المحكمة العسكرية.

وألح دون خيرونيمو:

– ولكنهم سيفعلون شيئاً ضده، أليس كذلك؟ ـ كان يتناول سمكة سالتاديتو مع أرز أبيض، وكان يهوّي بصحيفة في يده، ويأكل وفمه مفتوح ناثراً نتف الطعام من حوله: ـ فمن المفترض أن من يفعل ما يقال إن دوفو هذا قد فعله ببالومينو موليرو لا يمكنه الذهاب إلى بيته مطمئناً، أليس كذلك أيها الملازم؟

فوافق الملازم بفمه المتلئ وبانزعاج واضح من أنهم لا يتركونه يأكل بسلام:

– يُفترض ألا يتمكن من الذهاب إلى بيته بهذه البساطة. لا بد أن يحكموا عليه بشيء كما أعتقد.

ضحكت دونيا أدريانا من جديد، وأحس ليتوما بأن الملازم يتيبس ويغرق في مقعده كلما رأى صاحبة المطعم تقترب. لا بد أنه متيبس إلى الحد الذي لا يستطيع معه أن يهش الذباب عن وجهه. كانت ترتدي فستاناً مزيناً بزهور ومفتوح باتساع حول العنق، وتتقدم منهما وهي تحرك ذراعيها وتهز صدرها ووركيها باندفاع شديد. وكانت تبدو متعافية وسعيدة من نفسها ومن الدنيا.

ضحكت دونيا أدريانا وربتت على ظهر الضابط بحركة تحمل من السخرية أكثر مما تحمله كلماتها:

– اشرب قليلاً من الماء أيها الملازم، ولا تأكل بسرعة، فقد تنزلق اللقمة في مجرى آخر.

قال ليتوما وهو يتأملها دون أن يتعرف عليها. فقد تحولت إلى

Twitter: @ketab_n

شخصية أخرى، متغنجة. أية ناموسة لسعتها:

– يا لطيب مزاجكِ في الأيام الأخيرة.

فقالت دونيا أدريانا وهي تلتقط أطباق زوجي ثوريتوس وتبتعد باتجاه المطبخ:

– لا بد من وجود سبب.

كانت تهز مؤخرتها وكأنها تقول لهما وداعاً، وداعاً. وفكر ليتوما: «يا يسوع المسيح». وسأل:

– أتعرف لماذا هي هكذا، دائمة الضحك منذ ثلاثة أيام يا سيدي الملازم؟

وبدلاً من أن يجيبه، رماه الضابط بنظرة قاتل من وراء نظارته السوداء، وعاد يتأمل الشارع. هناك على الرمل، كان يوجد طائر رخمة ينقر شيئاً بغضب. وفجأة حرك جناحيه وطار.

قال دون خيرونيمو:

– أتريد أن أخبرك شيئاً أيها الملازم؟ وأنتظر ألا تغضب مني.

فزمجر الملازم:

– إذا كان ما ستقوله يُغضبني فمن الأفضل ألا تقوله. فلست في حالة تتحمل السماجات.

زمجر سائق التكسي:

– تلقيتُ الرسالة وفهمتها.

وضحكت دونيا أدريانا من المطبخ:

– هل سيسقط مزيد من الموتى؟

قال ليتوما لنفسه: «حتى أنها أصبحت شهية». وفكر: «عليّ أن أذهب لزيارة مومسات الصيني لياو. إنني أتحول إلى عاجز». كانت

Twitter: @ketab_n

طاولة الملازم وليتوما بعيدة عن طاولة سائق التاكسي، ولكي يصل صوت أحدهما إلى الآخر كان لا بد له من المرور فوق الزوجين اللذين من ثوريتوس. كانا شابين شديدي التأنق، وكانا يلتفتان بين هذين وذاك، مصغيين لما يقال.

حسم دون خيرونيمو أمره، وقال وهو يضرب الصحيفة على الطاولة:

– حتى ولو كان الأمر لا يروقك، فإنني سأقوله لك كي تعلم به وحسب. ليس هناك فرد واحد من أهالي تالارا، سواء أكان رجلاً أم امرأة أم كلباً، يبتلع هذه الحكاية. بل إن طائر الرخمة هذا الذي هناك لا يبتلعها.

كان الطائر الجارح قد رجع، وها هو هناك، قاتماً ومتعثراً، ودموياً في تعامله مع سحلية يحملها بمنقاره. واصل الملازم تناول طعامه بلا مبالاة، غارقاً في أفكاره وفي تجهمه.

فسأل ليتوما:

– وما هي هذه الحكاية، إن كانت معرفتها ممكنة يا دون خيرونيمو؟

قال سائق التكسي وهو يبصق الفضلات من فمه:

– حكاية قتل الكولونيل ميندرياو لابنته ثم انتحاره. من هو المغفل الذي سيصدق شيئاً كهذا.

فأكد ليتوما:

– أنا. أنا واحد من هؤلاء المغفلين وأصدق بأن الكولونيل قد قتل الفتاة أولاً ثم انتحر بعد ذلك.

تنحنح دون خيرونيمو وهو يقطب وجهه:

Twitter: @ketab_n

– لا تتظاهر بالبراءة يا صديقي ليتوما. لقد قتلوهما كي لا يتكلما. وليلصقوا تهمة اغتيال بالومينو موليرو بميندرياو. لا تتظاهر يا رجل.

رفع الملازم سيلفا رأسه عن الطبق:

– أهذا هو ما يشيعونه الآن؟ أيقولون إن الكولونيل ميندرياو قد قُتل؟ ومن هم الذين قتلوه؟

ففتح دون خيرونيمو ذراعيه:

– الأسماك الكبيرة طبعاً. ومن سيكون سواهم. لا تتظاهر بالجهل أنت أيضاً أيها الملازم، فنحن هنا موضع ثقة. كل ما في الأمر أنك لا تستطيع أن تتكلم. الجميع يقولون إنهم قد أطبقوا فمك ولم يسمحوا لك بالكشف عن أي شيء. كما هي العادة.

هز الملازم كتفيه، وكأن كل هذه التقولات لا تعنيه ولو بحجم أنملة، وقال دون خيرونيمو ناثراً حبات أرز:

– بل إنهم اخترعوا عنه أنه كان يستعمل ابنته. يا للخنازير. ويا للرجل المسكين. ألا ترين الأمر كذلك يا أدريانيتا؟

ضحكت زوجة دون ماتياس:

– أرى أموراً كثيرة، ها ها ها.

دمدم الملازم وهو يرجع إلى طبقه وعلى وجهه تقطيبة فظة:

– الناس يظنون إذن أن كل هذا كان تلفيقاً.

فقال دون خيرونيمو:

– طبعاً، للتغطية على المذنبين، ولأي شيء غير هذا سيكون.

دوت صفارة مصفاة البترول، فرفع طائر الرخمة رأسه وانكمش

Twitter: @ketab_n

على نفسه، بقي على تلك الحال بضع ثوان، منكمشاً ينتظر. ثم ابتعد متقافزاً.

سأل ليتوما:

– وما هو سبب قتل بالومينو موليرو برأي الناس إذن؟

فأكد دون خيرونيمو بثقة:

– من أجل عملية تهريب بعدة ملايين. قتلوا الطيار أولاً لأنه أحس شيئاً. وبما أن الكولونيل ميندرياو اكتشف قالب الحلوى، أو كان على وشك اكتشافه، فقد قتلوه وقتلوا الفتاة. ولأنهم يعرفون ما الذي يحبه الناس، اخترعوا هذه القذارة القائلة بأنه قتل موليرو بدافع الغيرة على ابنته التي ربما كان يستعملها. وبهذه الستارة الدخانية توصلوا لما أرادوه، وهو ألا يتكلم أحد عن القضية الأساسية: الملايين.

تنهد الملازم، وكان يحز الصحن بالسكين وكأنه يريد كسره:

– يا لأمهم العاهرة كم هم مخترعون.

وقالت دونيا أدريانا ضاحكة:

– لا تنطق بذاءات كي لا يسقط لسانك ـ وقفت إلى جانب الملازم وهي تحمل طبقاً من حلوى المانجا، وبينما هي تضع الطبق على الطاولة، التصقت به كثيراً، حتى أن فخذها الثخين احتك بذراع الضابط. فسحب هذا ذراعه بسرعة، وضحكتْ: ـ ها ها ها...

فكر ليتوما: «يا للغرابة!». ما الذي حدث لدونيا أدريانا؟ إنها لا تسخر من الملازم وحسب، بل إنها تداعبه على التمام. ورئيسه ما يزال دون استجابة. يبدو وكأنه مرتبك وقانط من عجرفة وسخرية دونيا أدريانا. كما يبدو وكأنه شخص آخر كذلك. ففي أية

Twitter: @ketab_n

مناسبة أخرى، كان يمكن لملامسات صاحبة المطعم هذه أن تثير فيه جنون السعادة، ولكان هجم بسرعة مئة في الساعة. أما الآن، فلا شيء يُخرجه من جمود التأمل الكئيب الذي هو غارق فيه منذ ثلاث ساعات. أية لعنة وقعت تلك الليلة إذن؟

– لقد انتشرت أخبار عملية التهريب هذه في ثوريتوس أيضاً ـ تدخل فجأة الرجل القادم للتعميد. كان شاباً، ذا شعر مثبت وسن ذهبية. وكان يرتدي قميصاً بلون الخوخ، منشى، ويتكلم متعجلاً. نظر إلى المرأة المفترض أن تكون زوجته: ـ أليس كذلك يا ماريسيتا؟

– أجل يا بانشيتو. صحيح. ـ قالت.

وأضاف الشاب:

– بل إنني أظن أنهم كانوا يأتون بثلاجات وأفران مطابخ. فلاقتراف جرائم كهذه لا بد من وجود ملايين كثيرة في العملية.

قالت المرأة التي من ثوريتوس وهي تطبق عينيها وكأنها تستنزل الدمع:

– من أثارت حزني هي أليسيا ميندرياو. فقد كانت الصغيرة ضحية بريئة لكل هذا. يا للطفلة المسكينة. أية تجاوزات تُقترف. وما يثير السخط أكثر هو أنهم لا يطالون المذنبين الحقيقيين بشيء. فهؤلاء يبقون أحراراً ومعهم الأموال. أليس كذلك يا بانشيتو؟

فهمهم دون خيرونيمو:

– من يدفع الثمن دوماً هو نحن الفقراء. أما الأسماك الكبيرة فلا. ألست محقاً أيها الملازم؟

نهض الملازم واقفاً بفظاظة جعلت طاولته وكرسيه يهتزان. وقال مبدياً ضجره من كل شيء ومن الجميع:

Twitter: @ketab_n

– حسن، أنا ذاهب ـ ثم توجه إلى ليتوما: ـ هل ستبقى؟

– سأذهب بعد قليل يا سيدي الملازم. دعني أشرب قهوتي على الأقل.

– ليكن هنيئاً إذن ـ زمجر الملازم سيلفا وهو يعتمر قبعته ويتفادى النظر إلى صاحبة المطعم التي لاحقته من الكونتوار حتى الباب بنظرة ساخرة، وأومأت له مودعة.

بعد دقائق من ذلك، وحين أحضرتْ له فنجان القهوة مع الماء، جلست دونيا أدريانا مقابل ليتوما، على الكرسي الذي كان يحتله الملازم.

قال الحارس خافضاً صوته كي لا يسمعه الزبائن الآخرون:

– ما عدت أستطيع تحمل الفضول. ألن تروي لي ما جرى تلك الليلة بينك وبين الملازم؟

فردت صاحبة المطعم، ووجهها المستدير يعكس الخبث:

– اسأله هو.

وألح ليتوما بصوت منخفض:

– لقد سألته أكثر من عشر مرات. لكنه يتظاهر بأنه لم يسمع ولا يفلت للسانه العنان. هيا، لا تكوني أنانية، أخبريني بما حدث.

– شدة الفضول من طبع النساء يا ليتوما ـ قالت دونيا أدريانا ساخرة، دون أن تفارقها الابتسامة الهازئة التي تزين وجهها منذ ثلاثة أيام.

فكر ليتوما: «إنها تبدو كطفلة أقدمت على فعلة خبيثة. بل إنها تبدو وكأنها استعادت شبابها وكل شيء».

Twitter: @ketab_n

وسمع دون خيرونيمو الذي كان قد نهض واقفاً يقول وهو متكئ إلى مسند الكرسي، متبادلاً الحديث مع الزوجين اللذين من ثوريتوس:

– وقيل أيضاً إنها قد تكون قضية تجسس أكثر من كونها عملية تهريب. لقد سمعت هذا من صاحب سينما تالارا. ودون تيوتونيو كاييه فرياس رجل جديّ، لا يتكلم من أجل الكلام.

وأشار بانشيتو:

– إذا كان هو من يقول هذا، فلا بد من مبرر لقوله.

وعززت ذلك ماريسا:

– حين يقعقع النهر، فلأنه يحمل أحجاراً.

همس ليتوما، باحثاً عن الكلمات:

– وأخيراً يا دونيا أدريانا، لا تغضبي لسؤالي، لكنني سأسألك إياه لأنه ينهش لساني: هل ضاجعت الملازم؟ هل استجبتِ له أخيراً؟

فهمست صاحبة المطعم وهي تشير له بسبابتها متوعدة:

– كيف تتجرأ على سؤالي سؤالاً كهذا يا عديم الحياء.

كانت تريد الظهور بمظهر الغاضبة، ولكنها لم تكن كذلك: فالبريق الصفراوي والسعيد كان يشع من عينيها البنيتين دوماً، وكان فمها ما يزال ينفرج عن ابتسامة غامضة وكأنها تتذكر، بين السعادة والندم، إثماً اقترفته:

– واخفض صوتك، فقد يسمعك ماتياس.

كان دون خيرونيمو يقول:

– واكتشف بالومينو موليرو أن أسراراً عسكرية تتسرب إلى

Twitter: @ketab_n

الإكوادور، ولهذا قتلوه. وربما كان زعيم الجواسيس هو الكولونيل ميندرياو نفسه.

وعلق القادم من ثوريتوس:

– مصادفات، مصادفات. إنها مثل قصص الأفلام.

– أجل، أجل مثل الأفلام.

همس ليتوما:

– كيف سيسمعني إذا كان شخيره مسموعاً من هنا يا دونيا أدريانا. ولكن، لست أدري. انظري، كل شيء يبدو غريباً منذ تلك الليلة. إنني أقضي الوقت محاولاً التكهن بما حدث هنا وجعلك منذ ذلك الحين متهتكة وجعل الملازم منزوياً هكذا.

أطلقت صاحبة المطعم قهقهة وواصلت الضحك لوقت لا بأس به بقوة ملأت عينيها بالدمع. كان جسدها يهتز، وثدياها الضخمان يتراقصان طليقين ووافرين، تحت الثوب المزين بالأزهار. وقالت:

– إنه منزو طبعاً. وأظن بأنني قد كبحت اندفاعه إلى الأبد يا ليتوما. لن يعود رئيسك أبداً للتصرف كزير نساء، ها ها ها.

كان القادم من ثوريتوس يقول وهو يلحس سنه الذهبية:

– أنا لا استهجن شيئاً مما يقوله دون تيوتونيو كاييه فرياس. وقد سمعت هذا الكلام منذ البداية: فلا بد أن تكون يد الإكوادور وراء هذا الدم.

– ولكن ما الذي فعلتِه لكبح اندفاعه يا دونيا أدريانا. وكيف جعلتِه مسالماً إلى هذا الحد. لا تكوني متكبرة. أخبريني، أخبريني.

تنهدت المرأة التي من ثوريتوس. وكانت سمراء ذات شعر أجعد، محشورة في ثوب أزرق كهربائي:

Twitter: @ketab_n

– ومن المؤكد كذلك أنهم اغتصبوا ابنة مينداریاو الصغيرة هذه قبل أن يقتلوها. هذا ما يفعلونه دوماً. فمن هؤلاء التعساء يمكن انتظار أي شيء. وأنا أقول هذا مع أن لي أقارب في الإكوادور.

همست صاحبة المطعم، كابحة ضحكتها المنفلتة ومغمضة عينيها وكأنها تريد أن ترى من جديد المشهد الذي يضحكها كثيراً:

– دخل حاملاً مسدسه في يده ليخيفني. كنت نائمة وسيطر عليّ فزع شديد. ظننته لصاً. ولكن لا، كان رئيسك. دخل محطماً قفل هذا الباب. عديم الحياء. معتقداً أنه سيخيفني، المسكين، المسكين.

تمتم دون خيرونيمو، ماطاً رأسه من خلال الصحيفة التي كان يهش بها الذباب:

– لم أسمع شيئاً حول هذا الأمر. لكنني لا أستغرب طبعاً أن يكونوا قد اغتصبوها قبل قتلها، ولا شك أن الذين فعلوا ذلك كانوا عديدين.

همست دونيا أدريانا:

– وبدأ يقول بعض الترهات.

فقاطعها ليتوما:

– ما هي؟

– لم أعد أستطيع العيش مع هذه الأشواق. إنني محتقن باشتهائك. لم تعد هذه الورطة تسمح لي بالعيش، لقد فاض بي. وإذا لم أحظ بك فإنني سأطلق رصاصة على نفسي، أو عليك أنت.

تلوّى ليتوما ضاحكاً:

– كم هو مضحك. هل قال لك حقاً إنه محتقن أم أنك تنسبين إليه ذلك بخبث فقط؟

Twitter: @ketab_n

فقالت دونيا أدريانا وهي تربتْ على يد الحارس:

– لقد ظن أنه سيؤثر بي أو يخيفني. ويا للمفاجأة التي قابلته بها يا ليتوما.

قالت المرأة التي من ثوريتوس:

– مؤكد، مؤكد أن الذين اغتصبوها كانوا عديدين، فهم هكذا دائماً.

– وماذا فعلتِ أنتِ يا دونيا أدريانيتا؟

– نزعتُ قميص نومي وبقيت عارية. ـ همست دونيا أدريانا بخجل. أجل، هكذا تماماً: خلعتْ الشلحة، وصارت عارية. كان أمراً مفاجئاً، حركة تلقائية من الذراعين اللذين رفعا الثوب بعنف وألقيا به على السرير ولم تكن في الوجه البارز من تحت الشعر المنفوش، ولا في ذلك اللحم الممتلئ الذي يشع في الظلام أية ملامح خوف، وإنما غضب متردد.

رمش ليتوما لمرتين أو ثلاث مرات:

– عارية؟

فأوضحت دونيا أدريانا:

– وبدأت أقول لرئيسك كلمات لم يحلم بها قط. أو لنقل بذاءات لم يحلم بسماعها قط.

استمر ليتوما يرمش وقد أصبح كله آذاناً صاغية:

– بذاءات؟

– ها أنذا هنا، ما الذي تنتظره لتتعرى أيها القواد الصغير ـ قالت دونيا أدريانا بصوت يرتعش احتقاراً وحنقاً، وكانت تعرض صدرها وبطنها، وتضع يديها على خاصرتها: ـ أم أنك تخجل من

Twitter: @ketab_n

أن تريني إياه؟ أهو صغير إلى هذا الحد يا باباي؟ هيا، هيا، أسرع، أنزل سروالك وأرني إياه. تعال، اغتصبني بسرعة. أرني فحولتك يا باباي. ضاجعني خمس مرات متتالية، مثلما يفعل زوجي كل ليلة. إنه عجوز وأنت شاب، ولا بد أنك ستحطم رقمه، أليس كذلك يا باباي؟ ضاجعني إذن ست أو سبع مرات، أتظن أنك قادر؟

تلعثم ليتوما مذهولاً:

– ولكن، ولكن... أأنت من تقولين هذا الكلام يا دونيا أدريانيتا؟

– ولكن، ولكن... ـ تلعثم الملازم ـ ما الذي أصابك يا سيدة.

وهمست صاحبة المطعم:

– أنا نفسي لم أتعرف على نفسي حينئذ يا ليتوما. ولم أعرف كذلك من أين خرجت معي تلك البذاءات. ولكنني أشكر القديس كاوتيفو دي أكاباكا الذي ألهمني تلك الأمور. لقد حججت إليه مرة، سيراً على قدمي، أثناء أعياده في تشرين الأول. ولهذا ألهمني في تلك اللحظة. وقد بقي المسكين مذهولاً كما ذهلت أنت. هيا يا باباي، اخلع بنطالك، أريد أن أراه، أريد أن أعرف حجمه وأن أبدأ بعد المرات التي ستضاجعني بها. هل ستصل إلى ثمان؟

تلعثم ليتوما، وقد اتقد وجهه، وأصبحت عيناه كطبقين:

– ولكن، ولكن...

– لا يحق لكِ أن تسخري مني هكذا ـ غمغم الملازم دون أن يطبق فمه.

وأوضحت صاحبة المطعم:

Twitter: @ketab_n

– ولأني كنت أقول كل ذلك بتمهل أكثر مما تسمعه الآن يا ليتوما. بسخرية وغضب شديدين جعلاني أسيطر على معنوياته، فوقف مصعوقاً... لو أنك رأيته.

قال ليتوما:

– لا أستغرب يا دونيا أدريانا، فهذا ما سيحل بأي شخص آخر لو كان مكانه. فأنا الذي أسمعك تروين القصة قد صُعقت. وماذا فعل هو عندئذ؟

قالت دونيا أدريانا:

– لم يخلع بنطاله ولا أي شيء آخر بالطبع. وكل الرغبة التي كان يحملها تحوّلت إلى دخان.

– لم آت هنا لتسخري مني يا سيدة أدريانا ـ هتف الملازم مستغيثاً دون أن يدري أين يختبئ.

– بالطبع لا يا ابن العاهرة، أنت آت إلى هنا لتخيفني بمسدسك وتغتصبني، لتشعر بأنك فحل قوي. هيا اغتصبني إذن يا سوبرمان. هيا، أسرع. اغتصبني عشر مرات متتاليات يا باباي. فهكذا سأرتوي. ماذا تنتظر؟

همس ليتوما:

– أنت مجنونة.

تنهدت صاحبة المطعم:

– نعم، لقد جننت. ولكن ذلك أعطى نتيجة. فبفضل جنوني مضى رئيسك بمعزوفته إلى مكان آخر، وذيله بين ساقيه. لقد فلقني تصنّعه الغضب، يا للسافل.

Twitter: @ketab_n

قال الملازم معترضاً:

– لقد جئتُ لأفضي لك بمشاعر صريحة وأنت تسخرين مني وتغضبينني. وهذا لأني أتنازل وأكلم عاهرة.

وأضافت دونيا أدريانا:

– انظر إليه كيف صار الآن. إنه في الحضيض. حتى أنه صار يثير فيّ الأسى.

قهقهت ضاحكة مرة أخرى، سعيدة بنفسها وظرافتها. وأحس ليتوما بفَيْض من التضامن والتعاطف نحو رئيسه. فهو محق بضيقه هذا، لأنها أهانته في كرامته كرجل. حين سيروي للمنيعين الأمر فسوف يثيرون صخباً شديداً وسيقولون إن دونيا أدريانا تستحق، أكثر من تشونغا، أن تكون ملكة المنيعين وسينشدون نشيدهم على شرفها.

لمّح الرجل الذي من ثوريتوس:

– وهنالك من يشير أيضاً إلى أن القضية هي مسألة شذوذ جنسي.

فرمش دون خيرونيمو متباهياً:

– شذوذ جنسي؟ آه، أجل؟ ممكن، ممكن.

فقال الذي من ثوريتوس:

– طبعاً ممكن. ففي الثكنات العسكرية تكثر حالات الشذوذ الجنسي. وكما هو معروف، فإن قضايا الشذوذ الجنسي تنتهي عاجلاً أو آجلاً بجرائم. ومعذرة إن كنا نتحدث أمامك بهذه الأمور يا ماريسيتا.

Twitter: @ketab_n

– لا حرج في هذا يا بانشيتو. فالحياة هي الحياة.

كان دون خيرونيمو يقول وهو ساهم:

– ممكن، ممكن. من كان يمارس ومع من؟ كيف ذلك؟

وغيرت دونيا أدريانا موضوع الحديث فجأة:

– لا أحد يصدق قصة انتحار الكولونيل ميندرياو.

فدمدم ليتوما:

– هكذا أرى.

وأضافت صاحبة المطعم:

– الحقيقة أنني أنا أيضاً لا أصدق. وأخيراً، كيف سيكون هذا.

نهض ليتوما، ووقع إيصال الغداء:

– وأنت كذلك لا تصدقين؟ ومع ذلك فأنا أصدق القصة التي رويتها لي، بالرغم من أنها أكثر خيالية من انتحار الكولونيل ميندرياو. إلى اللقاء يا دونيا أدريانا.

نادته:

– اسمع يا ليتوما ـ ثم أضفت على عينيها بريقاً من الخبث، وخفضت صوتها جداً: ـ قل للملازم إنني سأصنع له هذه الليلة فطير التاكو ـ تاكو التي يحبها كثيراً. فلعله يحبني ثانية، ولو قليلاً.

أطلقت قهقهة تغنج، فأفلتت من ليتوما كذلك ضحكة وقال:

– سأقول له ذلك بحذافيره يا دونيا أدريانا. إلى اللقاء.

يا للمفاجأة، من ذا الذي يفهم النساء. كان يتقدم باتجاه الباب حين سمع دون خيرونيمو يقول وراءه:

Twitter: @ketab_n

– لماذا لا تخبرنا يا صديقي ليتوما كم دفعتْ الأسماك الكبيرة للملازم كي يخترع قصة انتحار الكولونيل تلك.

فرد دون أن يلتفت إليه:

– هذا المزاح لا يروقني. وهو لا يروق الملازم أيضاً. وإذا علم بهذا الذي تقوله فسيدوسك يا دون خيرونيمو.

وسمع سائقَ التكسي العجوز يدمدم: «شرطي الخراء»، فتردد لحظة مفكراً بالرجوع. لكنه لم يفعل ذلك. خرج إلى قيظ الشارع الخانق. وتقدم عبر الأرض الرملية الملتهبة، وسط معمعة الأولاد الذين يتقاذفون بأقدامهم كرة من الخرق القماشية، والذين كانت ظلالهم ترسم جغرافية مضطربة حول قدميه. بدأ يتعرق، والتصق قميصه بجسده. إن ما روته له دونيا أدريانا لا يصدق. أيكون صحيحاً؟ أجل، يجب أن يكون كذلك. إنه يعرف الآن سبب انحطاط مزاج الملازم منذ تلك الليلة. فغضبه من بدينته في هذا الوقت، وسط هذه التراجيديا، غضب رهيب. ولكن يا لسوء النهاية التي آلت إليها قضيته. من كان سيصدق أن دونيا أدريانا ستتكشف عن امرأة مسلحة هكذا. تخيلها عارية، تسخر من الملازم، وجسدها المتين يرتعش وهي تومئ، بينما الضابط المذهول لا يريد أن يصدق ما يسمعه ويراه. إنّ أي شخص مكانه سيفقد زمام نفسه وسيشعر برغبة في الخروج هارباً. وانتابته نوبة من الضحك.

وجد الملازم جالساً إلى مكتبه في المركز بلا قميص، ومبللاً بالعرق. كان يهوّي بإحدى يديه ويحمل باليد الأخرى برقية، يدنيها كثيراً من نظارته. وحدس ليتوما، من وراء زجاج النظارة

Twitter: @ketab_n

القاتم، بأن عيني الضابط تتحركان على سطور البرقية. فقال:

– العظيم في كل هذا هو أن أحداً لا يصدق بأن الكولونيل ميندرياو قد قتل الفتاة وانتحر. إنهم يتحدثون بأعظم السخافات يا سيدي الملازم. يقولون إنها جريمة من أجل التهريب، ومن أجل التجسس، وإن للإكوادور يداً في القضية. ووصل الأمر إلى حد القول بأن السبب هو أمور شذوذ جنسي. تصور السخف.

فقال الملازم ملتفاً إليه:

– أخبار سيئة لك. لقد نقلوك إلى موقع نصف شبحي، في إقليم خونين. عليك أن تكون هناك خلال ما يستغرقه قطع المسافة للوصول. وسيدفعون لك أجرة الانتقال بالحافلة.

فقال ليتوما وهو ينظر إلى البرقية كالمُنَوَّم:

– إلى خوخين؟ أنا؟

فأكد الملازم:

– وأنا سينقلونني، ولكنني لم أعرف بعد إلى أين. ربما إلى هناك أيضاً.

فتلعثم ليتوما:

– لا بد أنه مكان بعيد جداً.

فأنبه رئيسه بشيء من التأثر:

– أرأيت أيها الأبله. كنت متشوقاً للكشف عن سر بالومينو موليرو. وها قد كشفته، فماذا جنينا. يبعثون بك إلى الجبال، بعيداً عن دفئك وعن أهلك. وربما بعثوا بي أنا إلى جُحْر أسوأ. هكذا يُكافَأ العمل الجيد في الحرس الأهلي هذا الذي انضممنا إليه. ما

Twitter: @ketab_n

الذي سيصيبك هناك يا ليتوما، ومن رأى طير رخمة في الأنديز، إنني أموت حزناً لمجرد التفكير بالبرد الذي ستعانيه.

وفلسف الحارس الأمر:

– يا لأبناء أعظم العاهرات.

Twitter: @ketab_n

متى سيبدأ الملازم التحقيق ؟ وكيف سيفعل ذلك ، كان ليتوما يشعر وكأنه راقد على جمر ، معلق بين المفاجأة والتقدير اللذين يثيرهما فيه حنكة رئيسه . لقد كان موقناً من أن الملازم سيلفا حريص على كشف النقاب عن سر مقتل بالومينو موليرو .

@ketab_n

طوى
للنشر والإعلام